الباب الأول

الوثنية

مدخل

من المؤسف يقيناً أن نحتفظ على مدى قرون، ثم نعمّق المحافظة في العصر الحاضر، بتشويه الصورة الحقيقية لديانة العرب قبل الإسلام، فنظل نتمسك بمقولات زائفة، تزعم أن العرب لم يكونوا وثنيين بالمفهوم الخالص للوثنية، كما جرت وتجري عند عبدة الأوثان وأتباع الشيطان في كل زمان ومكان، وإنما كانت وثنيتهم شركاً: أي كانوا يؤمنون بالله، ولكنهم جعلوا له نظائر أرضية. وقد دُبّجت حتى الآن كتب قديمة وحديثة حول هذا الموضوع، حاولت دوماً أن تجمع وتستقصي، ما يثبت هذا الشرك، بل تعدى الأمر إلى القناعة بوجود مجموعة متميزة في العصر الجاهلي: هي جماعة الحنفاء. وعلى الرغم من أن الكتّاب العرب على اختلاف مشاربهم يذكرون كثيراً من الشعائر الدينية، التي هي من صلب الوثنية (محلية وعالمية)، فإنهم يستمرون في التفريق بين العرب وغير العرب في الوثنية أو الشرك. ولا تجد إلا ما ندر من يلغي هذه التفرقة، فيتحاشى الإبهام والغموض.

ونحن هنا إذ نقر بالجاهلية، مفهوماً أدبياً عاماً مغايراً للإسلام، فإنما نؤكد أن الجاهلية في المفهوم الديني: هي الوثنية، سواء بسواء، وما الاحتفاظ بمسمى الجاهلية إلا لأنها التعبير الذي اختاره الإسلام نقيضاً لمبادئه وقيمه السماوية، وأن أولئك الذين يصرون على أنهم يذرسون/ يدَرسون، الجاهلية لا الوثنية، يغالطون أنفسهم، ويتجنون على الحقيقة كثيراً، ولو عاملوا تراث ما قبل الإسلام معاملة أي تراث وثني، لاستطاعوا التوصل إلى نتائج صادقة مبهرة. ومن المؤكد أن تلك المغالطة التي رانت على الدراسات طويلاً، تعود إلى متابعة المستشرقين الذين ما فتئوا يرددون فكرة الشعوب السامية، فعزلوا

شعوب المنطقة من جبال طوروس حتى بحر العرب عن بقية شعوب العالم تحت مسمى «السامية». ولم يكتفوا بدراسة هذه الشعوب على أنها وحدة لغوية واحدة، بل افترضوا أن لها خصائص فكرية ونفسية تخالف سواهم[(١)].

وجاء المحدثون من العرب، فخلطوا بين الأفكار، فضيقوا الدائرة، وزعموا أن العرب غير سواهم، وأن دين العرب ليس هو وثنية خالصة، وليس هو توحيداً صافياً، وإنما هو شرك، مثل قولهم:

«ولا شك أن العرب الجاهليين قد عرفوا الله الخالق...»[(٢)].

«كان منهم من كان يعبد الله ولكنه أشرك بعبادته بعض الأصنام والأوثان وربما لم يكن يتعبد إليها بل جعلها وسيطاً وشفيعاً لدى الله عز وجل»[(٣)].

«ولم يتخلوا عن كفرة الإله الخالق للكون، وإنما هم أشركوا بعبادته عبادة الآلهة الأخرى المتمثلة في الأوثان والأصنام على اختلافها»[(٤)].

«كانوا في غالبيتهم متذبذبين بين مختلف المعبودات لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فعاشوا في فراغ ديني قاتل، وكأن بهم ظمأ لري العبادة الحقة، ملأهم فراغ العقيدة السمحة»[(٥)].

والأغرب من هذا هو عزل وثنية جنوب الجزيرة العربية عن

---

(١) البنا، الله في العقيدة الإسلامية، ص٣٨.

(٢) عواد، أديان العرب، ص١٩١.

(٣) المرجع نفسه، ص١٨٨. وانظر الفيومي، في الفكر الديني الجاهلي، ص ص١٦٣ - ٣٧٢.

(٤) الشامي، الشرك الجاهلي، ص٥٤. وانظر ص ص٢٨ - ٢٩.

(٥) زلط، التأثير النفسي للإسلام في الشعر، ص١٧. وانظر رأيه المسرف، ص١٤. وانظر مسعود، الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام، ص١٤٦.

شمالها، فالباحثون إذ يفصلون بينهما تارة، يعودون، فيجمعون بينهما مرة أخرى، ويضعون الموقف في اليمن في صف الموقف الديني لعرب الشمال، على أساس أن هؤلاء عرب قاطبة، ثم يُلِحّون على وصف هذه الوثنية بالسذاجة والبساطة، على الرغم من أن اليمن كانت ذات حضارة عريقة، وكانت وثنية أيضاً، الأمر الذي يجعل هذه الوثنية ذات مستوى حضاري يضاهي حضارة سومر وبابل وبلاد اليونان، بل الهند أيضاً. ومع أن مكة، مثلاً، كانت مركزاً تجارياً مرموقاً، أثبت رجاله أنهم عتاة، وأنهم وَاعُون جداً بتدينهم، فإننا ما زلنا نسمع أن العرب كانوا على بقايا من توحيد، وأنهم كانوا سذجاء بسطاء:

«أكثرية الأمة، وخصوصاً القبائل التي تنسب إلى الشعب المضري عكفت على نوع بسيط من الدين الفتشي...»[1].

«كانت معتقدات قدماء العرب الدينية بسيطة»[2].

ومن تلك الأقوال غير المدققة أو المتحرزة ما ذكره العبيدي في مقاله عن الأوثان في الجاهلية، إذ قسم الشرك إلى ثلاثة هي:

١ ـ الاعتراف بالله الواحد واعتبار الملائكة شفعاء عنده مع جعل الأوثان رموزاً مادية للملائكة.

٢ ـ عبادة الجن.

٣ ـ إشراك ما لا يعقل ولا يسمع.

ثم استنتج قائلاً:

«ومهما كانت قيمة الآلهة التي عبدتها العرب فهي لم تبلغ من

---

(١) الحوت، في الميثولوجيا العربية، ص١٢٦.

(٢) دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ج٢، ص١٦٥.
وانظر جواد علي، المفصل، ج٦، ص١١٨.

الشأن والقيمة ما بلغته آلهة الإغريق في القديم. فقد عظّم الإغريق آلهتهم وشيّدوا لها الهياكل وأقاموا التماثيل واختلقوا حولها الحكايات والأساطير فكانت آلهتهم إلى جانبهم في حلّهم وترحالهم وفي حروبهم وأفراحهم وفي جميع مواسمهم وأعيادهم. وقد اختص كل إله بصفة من الصفات فكان للخير إله وللشر إله وللجمال إله وللخمر إله وهكذا. فوجود الآلهة عندهم لم يفرضه الخوف من المصير ولا الحاجة إلى دفع شر متوقّع وإنما حتّمه شعور الإغريق الحاد بضرورة وجود آلهة لا تكتمل صورة الإنسان إلاّ بها ولا يُعرف الكمال إلا بواسطتها. أما الجاهلي فلم يلجأ إلى الآلهة إلا لخوفه من الدهر الرّياب ففكّر في نفسه قبل أن يفكّر في آلهته وسعى إلى صون ذاته لا إلى صون آلهته والتضحية من أجلها فلم يقدّمها لذاتها بقدر ما قدمها لكونها قادرة في نظره على دفع الضر عنه».

مع أنه سبق أن قال:

«والجدير بالذكر أن الأنصاب التي اتخذت في البدء رموزاً مادية للإله قد أمست بالنسبة إلى أقوام من العرب عديدين بعد مدة من الابتهال لها والعبادة آلهة حقيقية لا مجرد شفيعة أو نائبة عن الإله».

ونكاد نرى في مثل هذه المقولة كل الاتجاهات في دراسة الوثنية العربية حتى الآن، فهم يقولون بالشيء ونقيضه في آن، ويتنقلون من فكرة إلى أفكار. وليس ذلك قاصراً على الدراسات العربية الحديثة، بل حتى عند كبار المستشرقين[(١)]، وكأن العرب أمة غير الأمم، وبشراً

---

(١) انظر (R.E مع).

Noldeke, the Arabs (IR), PP.659-673.

وانظر *Gardet, Allah, Ency. of Islam, V.1, PP. 406-414.*

فهو لم يستطع الخروج بقول محدد، وإنما مكرر.

ليسوا كبقية البشر؛ ونسوا تاريخ الدعوة الإسلامية في طورها الأول، وتناسوا صراع الإسلام مع أعدائه من وثنيين، ويهود مشركين في طوره الآخر. أما المعابد والحكايات والأساطير، فإن ما وصلنا عنها نزر يسير، بل أين معابد اليمن، وبيوتات الآلهة في كل الجزيرة العربية؟ إن الفرق بين الإسلام والمسيحية، هو أن المسيحية تكيفت مع الوثنية، في حين أن الإسلام جَبَّ ما قبله، وقضى عليه.

وإذا كنا متفقين على أن جِبِلّة الإنسان وطبيعته هي التوحيد، فإننا لا بد أن نتفق أيضاً على أن الإنسان خُلق جهولاً، وأنه يَنْجَرّ إلى الكفر سريعاً، وأنه يخضع لإغراءات الحياة ومباذلها، فينسى، ويعود ينسب فضل وجوده وتكوينه إلى نفسه، ويستولي الشيطان، عدوه الأبدي على قلبه، فيستسلم للمادة، حتى يبدل الفطرة والجِبِلّة بمعبودات من ادعائه ولَغْوه. والعرب ليسوا بِدْعاً بين الأمم، فقد تحولت الحنيفية سريعاً بعد إسماعيل عليه السلام، إلى مجاراة غيرهم في عبادة غير الله. ويمكن اختصاراً للشواهد في هذا الموضوع أن ننظر في حال بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، فهؤلاء الذين مَنّ الله عليهم بالنجاة، ووعدهم الحياة السعيدة والمكانة الفضلى، تحولوا في حياة نبيهم وقائدهم، إلى وثنيين، ربما أشد وثنية من الوثنيين أنفسهم، وإن هذه الحقيقة صريحة في قوله تعالى:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

والواضح تماماً أن مفهوم وثنية العرب ظاهرٌ في القرآن الكريم، ولا يحتاج إلى كبير عناء، لو كنا نتدبر أو نتأمل، ولم نقلد التيار العام ونسايره، ومن ذلك أيضاً أن القرآن الكريم لم يشر إلى الحنيفية على عهد الرسول ﷺ، بل خلاف ذلك كان غير ذلك هو الثابت الصحيح،

فالرسول ﷺ تلقى الرفض والإنكار من قومه، وأثبت القرآن الكريم أن الوثنية راسخة في العرب رسوخاً شديداً:

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص: ٤].

وتتضح لنا هذه الرؤية بجلاء عند النظر في السور المكية، وذلك حسب الأوضاع التالية التي سنعرضها في:

الفصل الأول
العقيدة

أصل تأليه الآلهة

البُنُوَّة

لم تكن حقيقة ذكر عيسى ابن مريم في السور المكية موجهة إلى النصارى فقط، بل كانت موجهة أيضاً إلى الوثنيين في مكة الذين كانوا يحتجون بأن آلهتهم (بنات الله)، قال تعالى:

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ . . .﴾ [الكهف: ١٠٢].

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ سُبْحَٰنَهُۥٓ. . .﴾ [مريم: ٣٥].

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٢].

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف: ١٦ ـ ١٧].

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٩ ـ ١٥٨].

وتوضح لنا الآيات السابقات أن فكرة البُنُوّة فكرة وثنية خالصة، سابقة على اليهودية والنصرانية، وهذا واضح في سورة التوبة المدنية:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ولقد احتج الله على وثنيّ العرب بمَثَلهم الذي ضربوه، أي ببنوة عيسى ابن مريم، فجاء في الآيات المكية:

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦٠].

ولا بد أن الوثنيين في مكة، حينما ضربوا عيسى ابن مريم مثلاً، كانوا يُشيرون إلى الأقانيم الثلاثة في كنائس النصارى، والتي كانوا يسمونها أصناماً، على غرار أصنامهم، قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٣].

الآلهة بنين وبنات

وقد خاطبهم الله سبحانه، على أن الأوثان إناث، كما يعتقدون، فقال:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾ [الأنعام: ١٠٠].

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ [الإسراء: ٤٠].

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى (٢٧)﴾ [النجم: ٢٧].

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩)﴾ [الطور: ٣٩].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف: ٨٧].

وأن عبادة تلك الأصنام كانت تنفيذاً لإرادة الله:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾ [الزخرف: ٢٠].

رمز الأنثى

إن هذا يعني أن الوثنيين اعتقدوا أن الملائكة هم بنات الله،

فليس لله ـ جل شأنه ـ أولاد ذكور في اعتقادهم، ومن ثم جسّموا هذه الملائكة في أشكال وثنية متعددة (كالعزّى ـ مناة ـ اللات)، وعبدوها على أنها الصلة بالإله، فهي الآن آلهة، ويعود هذا التفكير إلى المعتقد الوثني الذي يرمز بهذه الأوثان الأنثوية، إلى الإلهة: الأم (الأنثى) ـ الأرض، كما هو الحال في الأساطير السومرية والسامية والفرعونية، ثم وجدنا إلى جانب الإلهة، الإله الذكر: هبل، سواع، ود... إلخ. أي: الإلهة عشتار والإله تموز؛ الإلهة إزيس والإله حورس؛ الإلهة مناة والإله هبل؛ الإلهة الشمس والإله القمر.

إذن، فالأم ـ الأنثى *The Mother Goddess* كانت في البدء عذراء، ثم أصبحت زوجة، لتتولى دور الإنجاب، فيأتي الابن الإله *The Young God*، وهكذا اتصلت في الأساطير السومرية نينهورا ساقا *Ninhurasaga* بإنكي *Enki*، فولدت عدداً من الآلهة، وعلى هذه الشاكلة تستمر التحولات(١).

والذي يثبته القرآن الكريم، أن عبادة الملائكة، كانت بإيحاء من الشيطان:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

أي إن عبادة الملائكة والجن هي عبادة الأرواح؛ قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ

---

(١) *James, The Ancient Gods, PP. 77-112.*

إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٩ ـ ١٥٨].

وكان الجن شياطين[١]، فلما جاء الإسلام آمن منهم من آمن، كما في سورة الجن، وسورة الأحقاف، ٢٩ ـ ٣٢.

وعلى أساس من هذا المعتقد المَكِين في نفوسهم، والذي تَشَرَّبته عقولهم وأفئدتهم، تكونت اعتقادات راسخة في أذهانهم بأن هذه المعبودات هي:

الأولياء

قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الزخرف: ٦].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩].

الشفعاء

قال تعالى:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣].

الأنداد

قال تعالى:

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ [فصلت: ٩].

---

(١) انظر عن الشيطان، *Carus, Devil, PP. 1-49.*

الآلهة

قال تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٢].

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ٨١].

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦].

ومهما تعددت التأويلات، فإن كل هؤلاء كانوا يخضعون للشيطان:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

الشرك عند العرب

رأينا أن معبودات الوثنيين قاطبة تأتي في مَصَافِّ الإله، فهي الآلهة الأنداد. ومن هنا كان مفهوم الشرك. قال تعالى:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢٠].

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥].

لقد غابت وحدانية الله جل وعز، عندهم في تثنية شديدة، جعلت الآلهة هي التي تبدو في الواجهة. قال تعالى، ناقلاً عمق تلك

الثنية، وجذورها الممتدة في تفكيرهم وموروثهم الثقافي:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥].

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٤ ـ ٧].

الشرك البشري

وعلى هذا، يكون مفهوم الشرك: هو عبادة غير الله؛ سواء عند العرب، أو عند غيرهم، وفي الأمثلة التي ضربها الله سبحانه وتعالى عن المشركين قياس على هذا، إذ إن الدعوة الدينية السليمة هي دعوة التوحيد التي نادى بها الأنبياء من قبل نوح عليه السلام ومن بعده، حتى محمد ﷺ.

مَثَل نوح

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] [وانظر، هود: ٢٦].

مثل عاد

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥] [وانظر، هود: ٦١].

مثل ثمود

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

مثل مدين

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥] [وانظر، هود: ٨٣].

الكفر

وإذا وضعنا الشرك: أي تعدد الآلهة، في مقابل التوحيد: أي عبادة الله وحده، فإن الشرك، يعني في الحقيقة: الكفر؛ كما أن هؤلاء المشركين: كفار، وبذلك يخرج الشرك عن أن يكون اعترافًا ضمنياً بوحدانية الله، ليصبح: تمسكاً بعبادة غير الله، أي: الوثنية. ونجد هذا مُبَيَّناً في السور المكية الموجهة إلى الوثنيين خاصة. قال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: ٣٧].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم: ٥١].

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [المعارج: ٣٦].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ [البروج: ١٩].

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ [الغاشية: ٢٣].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾ [البلد: ١٩].

الأسطورة

وقد تحدّدت رؤية هؤلاء الوثنيين إلى دعوة التوحيد تحديداً دقيقاً في إصرارهم على تبني موقف وجودي من الأديان السماوية المؤمنة بالله، على الرغم مما خالطها من زيف وتحريف. إنهم يَعُدّون بَعْثَ الرسل والأنبياء، وإثبات الألوهية أسطورة لا يقبلها العقل، ولا يرتاح لها الشعور. قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤].

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٢ ـ ٥].

وهكذا، فإن توحيد الربوبية يقربه الكافر والمسلم، أما توحيد الألوهية، فنفي الألوهية عن غير الله، وإثباتها لله وحده[١].

---

(١) ابن الشيخ عبد الله، في عقائد الإسلام، ص ص٤٠، ٣٤ ـ ٤٩.

الفصل الثاني
شمولية الوثنية

الرأي الخاص بالعرب في الوثنية

موقف العرب الوثنيين

يمثل هذا الموقف: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والأخنس بن شريق، والأسود بن عبد يغوث[1]، الذين كانوا يتولون الدفاع عن الموقف الوثني بشكل عام:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٥].

الرأي العام

يبلغ تمسك الوثنيين برفض فكرة الدين الإلهي، والتَّشبُّث بالدين الوضعي، أي: الوثنية، حَدّ انتشار مفهوم الأسطورة بينهم جميعاً، حتى لا نجد أياً منهم يختلف عن الآخر، دون أن يهتز إيمانهم، أو تتخلخل معتقداتهم، فكأنهم جميعاً نسخة واحدة، يصدرون عن قلب واحد، ويردّدون صوتاً واحداً، قال تعالى:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المطففين: ١٠ ـ ١٣].

---

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٢٩، ص٧١.

الوثنية العالمية

رأينا أن الشرك ـ وهو الطابع الوثني العام لكل الأديان البدائية ـ مقام أساساً على ثنائية: الله/الرب، بحيث لم يعد هناك مجال للانتقال إلى الله، إلا عن طريق أحد هذه الآلهة. وهذه هي الصورة الكُليّة للوثنية، كما تمارسها الشعوب التي لم تتقبل المسيحية أو اليهودية، قبل مجيء الإسلام. وقد وصل الأمر بدعاة الوثنية إلى التحدي، والمجابهة العلنية، لأي اختراق لشعائرها وطقوسها، كما أوضح الله سبحانه وتعالى ذلك، عندما ضرب الأمثال بقصة قوم لوط (سورة الذاريات وسورة القمر)، وفرعون وثمود وعاد (سورة الحاقة)، وأصحاب الأيكة وقوم تبع (سورة ق)، والمؤتفكة (سورة النجم) وأصحاب الرس (سورة ق).

ويمثل هذه الوثنية العالمية:

قوم نوح

وهكذا كان دفاع قوم نوح عن وثنيتهم:

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

قوم إبراهيم

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات: ٨٥ ـ ٨٦] [وانظر، مريم: ٤٦].

﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢].

الأقوام الأخرى

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧ ـ ٢٨].

ومن الأدلة على تراسل الأفكار بين الوثنيين عامة أن:

«الهند تزعم أن البقر ملائكة سخط الله عليها، فجعلها في الأرض، وأن لها عنده حرمة...»[1].

مفهوم التوحيد

وإزاء تعدد الآلهة هذا، فليس هناك في دعوة الإسلام إلا الله وحده، إنه القاعدة المطلقة:

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التغابن: ١٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الجن: ٢٠].

وسورة الإخلاص هي الأساس:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

وهل هناك أصدق حديثاً بعد هذا من تفنيد الله سبحانه وتعالى لمزاعم الوثنيين قاطبة، وكشفه جل وعلا لواقع اعتقادهم، حينما يخاطب البشرية جمعاء بكل وضوح، فيقول جل شأنه:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٣ ـ ٤].

فحتى الادعاء بأن الآلهة هي الواسطة بينهم وبين الله جل شأنه،

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ١٨، ص٣٨٣.

والتي تمر بمعتقد البُنُوَّة، ثم ما يداخلها من ولاية وشفاعة.. إلخ، إن هي في حقيقتها إلا ستار، أو خداع نفسي يخفيان إن واقع الاعتقاد المباشر في الآلهة نفسها، أي الارتباط بالأرض ـ الأم ـ الأنثى.

مع ملاحظة أن هذا الادعاء الذي أبطله الله تعالى ذكره، لم يأت في القرآن الكريم كله إلا في هذه الآية في قوله تعالى في السورة المكية [الزمر: ٣]:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

وينبغي أن نفهم دعوى: «تقربنا إلى الله زلفى»، في إطار تلك التثنية: الربوبية/الألوهية، (أي: الاعتراف بتوحيد الرب الخالق للكون، وإنكار توحيد الله) والوثنية، إذ إن التفكير البشري واحد في التفرقة بين: الربوبية ـ الألوهية، والوثنية.

وقصورنا في فهم الآية السابقة هو في عدم تتمتها وما بعدها، وهو أن ذلك الادعاء كذب وكفر. قال تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر: ٣].

ولا يقتصر هذا على الوثنيين، بل يدخل فيه: اليهود، حين قالوا: عزير ابن الله؛ والنصارى، حين قالوا: المسيح ابن الله[1].

مع التنبيه إلى التذكير بفرقة واختلاف الوثنيين أنفسهم في معتقداتهم:

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، جـ٧، ص١٦١.
وانظر مثل هذا القول في الأوس والخزرج قبل الإسلام، الطبري، تفسير الطبري، جـ٢، ص٣٠٥.

والله الذي يذكرونه، هو كبير الآلهة، وليس الله المنزه عن التمثيل، كما سنرى.

وليس هذا فحسب، بل إن المشركين، أي: الكفار الوثنيين، لم يكتفوا بظاهر إيمانهم بهذه التنثية، وخداع ذواتهم بادعاءات باطلة. وإنما هم في قرارة أنفسهم يرونها الأولى، وهي الصائبة. قال تعالى:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

والمعنى نفسه نجده مرة أخرى مكرراً في قوله سبحانه:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧].

وإن أية دعوة إلهية هي ضد معتقداتهم، وحَمَلَتُها يوصفون في كل الأديان الوثنية، بأنهم: إما سحرة، أو مجانين، أو شعراء، أو معلّمون، أو كهان... إلخ.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ [فصلت: ٤٣].

أي: إذا كانت الدعوة لله، أي دعوة التوحيد، فإن هذا مرفوض من قبلهم؛ ذلك لأن الله عندهم، هو غير الله، كما جاءت به الرسل والأنبياء، وإنما هو الله الذي له شركاء، كما يعتقدون.

الفصل الثالث

«الله» في الوثنية

توحيد الربوبية

التصور الآخر لله أن هناك فرقاً بين الوثنية والشرك، على أساس المنظور السابق لتثنية: الإله - الآلهة (الرب - الأرباب).

وهذا في حقيقته خطأ جسيم، وقصور في الإدراك، وعدم استيعاب للصورة الشمولية للوثنية، ذلك أن كل وثنية في العالم تؤمن بوجود قوة خارقة عليها/ قوة مطلقة/ *Supreme/ Super Power/ Being/ Deity*[1]. والإله فوق الآلهة، أو الرب فوق الأرباب، ثم يكون التدرج في مستويات الآلهة نفسها، وبعد أن عرفنا تلك الرؤية الوجودية الشمولية للكون والحياة في نظر الوثنيين، فإن القرآن الكريم، يحفل بتوضيحات شتى لها، فهُم كما يقول القرآن الكريم:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦].

---

(١) انظر توضيح هذا المفهوم في:
Tylor, Religion in Primitive Culture, PP. 419-441.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقد أطلق الوثنيون مسمى الرب على الإنسان، ولم يطلقوا مسمى الله الوثني، قال الحارث بن حلزة في الملك عمرو بن هند، «وهو الرب الشهيد»[1]. وقال الأعشى في عمرو أيضاً: «ربي كريم لا يكدر نعمة».

توحيد الألوهية

وتكشف الخاتمة: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، على أن أولئك الوثنيين إذ يقرون بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض، ومسخر الشمس والقمر، ومنزل الغيث، بل خالقهم هم أنفسهم، لا يعيرون ذلك الإقرار أهمية تذكر، إذ هو إقرار باللسان، وليس بالفعل والممارسة، أي إنهم ـ في واقع الأمر ـ ينكرون إنكاراً صريحاً الإلٰهية، إنهم كفار، كما قال تعالى:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ...﴾ [فصلت: ٩].

فهم مع اعترافهم بأن الله خلق الأرض مثلاً، ينكرون الدلالات الكونية على وحدانية الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [فصلت: ٤٠].

---

(١) النحاس، شرح المعلقات، جـ٢، ص٥٧٧.

فالوثنيون مجمعون على إثبات الله، وإرجاع الخَلْق له:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٩].

وهم مع ذلك يعيشون في أجواء الوثنية التي عِمادها فعل الشيطان: السحر، «أنى تسحرون».

وليس أدل على هذا التوجه من تكرار قوله تعالى عبارة: «من دونه» أو «من دون الله»، مما يثبت الانقطاع والاتصال بالآلهة وحدها، وهذا هو الكفر، أو الشرك قبل الإسلام ـ الذي يُخلط بالشرك بعد الإسلام بممارسة أعمال وثنية في إطار الإسلام ـ ثم الاعتقاد بفكرة البنوة. قال تعالى في سورة الفرقان، السورة المكية، الآيتان: ١ ـ ٣:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

وتجد في هذه الآيات اختصاراً شاملاً للمعتقد الوثني عامة: عربياً وعالمياً، بل للصورة الدينية قبل الإسلام:

«العالَمين»: وثنيون ـ يهود ـ نصارى ـ صابئة، كلهم في مستويات متقاربة.

«لم يتخذ ولداً»: دعوى كل الجماعات الدينية دونما استثناء.

«شريك في الملك»: التجسيم والتجسيد والتصور عندهم.

«آلهة...»: لها قوة النفع والضر والإماتة والإحياء، والبعث.

وإذن، فإيمان الوثنيين جميعاً وليس العرب فقط، في حقيقته، إيمان بألوهية الآلهة، أو ربوبية الأرباب، قال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨].

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

فالاعتقاد بقوة خارجية «الله»، إنما هو اعتقاد اسمي، وليس فعلياً؛ إذ تتوجه عبادتهم إلى الآلهة مباشرة:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢].

وهكذا كانت تلك الشراكة، أو التثنية:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

أما قوله تعالى في سورة الزخرف:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾.

فلا يعني إيمانهم بـ«العزيز العليم»، ذلك أن هذين الاسمين اسمان إسلاميان، ولكنهم كانوا يعيدون تعبير القرآن الكريم، كما قال تعالى في سورة الزخرف نفسها الآية ٢٠:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم ...﴾.

إذ هم في الواقع يكفرون بالرحمن:

﴿... لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ ...﴾ [الزخرف: ٣٣].

إنهم في تصورهم أن معبوداتهم التي تمثل الملائكة والجن، هي جزء من الله جل شأنه (أي تلك العلاقة المادية):

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

جاء في تفسير التحرير والتنوير عن قوله تعالى السابق: ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

«ليس ذكر الصفتين العُلْيَين من مقول جوابهم، وإنما حكى قولهم بالمعنى، أي ليقولن: خلقهن الذي الصفتان من صفاته، وإنما هم يقولون:

«خلقهن الله»... وذلك هو المستقرأ من كلامهم نثراً وشعراً في الجاهلية»(١).

«... وتخصيص هاتين الصفتين بالذكر من بقية الصفات الإلهية لأنها مضادة لصفات الأصنام، فإن الأصنام عاجزة عن دفع الأذى.

والتقدير: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله، وإن سألتهم: أهو العزيز العليم»(٢).

ويصل بنا القرآن الكريم في حديثه عن معتقد الوثنيين إلى أنهم يكفرون بالله العظيم، وهم وإن اعترفوا به، فإنما يعترفون به اسمياً وليس فعلياً. فالله جل وعلا هو الله في الجاهلية والإسلام.

لقد قال العقاد عن الفجوة بين المعتقدين:

«كان عرب الجاهلية... يعرفون اسم الله كما نعرفه اليوم،

---

(١) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٢٥، ص١٧٦.

(٢) المرجع نفسه، ص١٦٧.

وانظر عن لفظ الجلالة «الله»:

Wellhusen, Reste Arabischen Heidentums, pp. 215-224.

ولكن الذي وصفوه والذي وصفه الإسلام لا يتشابهان بغير الحروف، وبينهما من الفارق كما بين أبعد الأرباب»(١).

وربما حمل كلام العقاد هذا مغالطة غير بينة، انطلاقاً من متابعته لآراء الغربيين في منشأ التوحيد، إذ إن الله في القرآن الكريم واحد، يتفق في ذلك الوثني والموحِّد، إلا أن الوثني يجعل مع الله إلهاً آخر، أي هناك ند لله، له الاسم نفسه. وهو ما بينه عبد الوهاب يحيى، الذي لم يشر إلى العقاد، إذ اقتفى في ذلك أثر المستشرق وينت *Winnet* في مقالته: «الله قبل الإسلام *Allah Before Islam*»، وهي الفكرة التي يطرحها المستشرقون، وتهدف إلى جعل الإسلام تطوراً طبيعياً للديانة الوثنية، أي: «يمثل خطوة أولى على سبيل التوحيد»(٢)، يقول:

«يكون المقصود بلفظة «الله» هنا هو المعبود الجاهلي وليس الله سبحانه وتعالى كما يعرفه المسلمون. والصفة الأساسية لهذا المعبود وهي أنه على رأس المعبودات الأخرى عند أهل قريش... ومن الواضح أن «الله» الذي يتحدث عنه القرشيون الجاهليون هو «الله» المعبود الجاهلي الذي كانت عبادته قائمة إلى جانب المعبودات الأصغر وهو ما يتطابق مع [المعتقد] اللحياني»(٣).

التجسيم عند العرب

جاء الإسلام يطالب الوثنيين عامة بالإيمان بالله وحده وإلغاء الآلهة أياً كانت صفتها، فهم يؤمنون حقاً بالقوة العليا (الله)، ولكنهم لا يتوجهون إليها مباشرة بالعبادة، وإنما من خلال تلك الوسائط المادية، وخطاب القرآن الكريم لهم لتوحيد الله هو أمر بالانفصال عن

---

(١) الله، ص ٧٣.
(٢) العرب في العصور القديمة، ص٣٨٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ص٣٨٦ ـ ٣٨٧.

القوى الأخرى، وهذا هو جوهر التوحيد؛ أما هم فلا يتصورون الله مجرداً، وإنما مجسماً، وعلى هذا تأتي كل المعطيات الوثنية في العالم. وهكذا عبد عرب الجنوب الشمس، وعبد عرب الشمال (سورية) الزهرة، وعبد آخرون القمر. قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت: ٣٧].

وهنا محور الوثنية، إنهم في اعتقادهم يعبدون الله: «إن كنتم إياه تعبدون»، ولكن من خلال ممثل آخر لله، فالوثني لا يمكنه أن يتصور الله مجرداً عن التمثيل «استكبروا». ولهذا قالوا: «تقربنا إلى الله زلفى».

أي: إن الوثنيين عامة يعترفون بأن ما يعبدونه ما هو إلا شكل مجسَّم، غير أنهم يعبدون الأرواح التي تتقمص هذه الآلهة، وإن كانوا في الحقيقة يعبدونها[١].

ويفيدنا تأكيد القرآن الكريم على هذه التثنية الله ـ الشمس/ ـ القمر، في الآية السابقة إلى ما طرحه قبل قليل عبد الوهاب يحيى، وإلى ما قد يكون هو الذي عَلِق بذهن العقاد، أي الله جل جلاله ـ الله المجسَّم. يقول يحيى مرة أخرى:

«ظهر معبود تحت اسم «الله» في سورية ثم رفعه السوريون إلى مرتبة الإله الأكبر. وقد انتقلت عبادته إلى اللحيانيين بهذه الصفة (صفة كبير الآلهة)... ثم انتشرت في فترات لاحقة... وقد ظهر المعبود «الله»... بهذه الصفة في نقوش اللحيانيين منذ القرن الخامس ق.م.

---

(١) *Kato, Theological Pitfalls, P.20*

وعند الثموديين في نقوش ترجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد و. . . يبدو أنها كانت قد سادت وتمكنت في قبيلة قريش على الأقل قبل ظهور الدعوة المحمدية»[١].

وكذلك جاء في النقوش الصفوية على أنه أحد الآلهة: «هـ له/ هالاه/ الله»[٢].

فإذا فصلنا هذا الكلام عما يخص لفظ الجلالة «الله» في القرآن الكريم، من حيث العقيدة البشرية عامة، جاز لنا أن نقول مع العقاد:

«الله الذي وصفوه والله الذي وصفه الإسلام لا يتشابهان»، كما جاز لنا أن نقول أيضاً مع يحيى:

«المقصود بلفظة «الله» هنا هو المعبود الجاهلي وليس الله سبحانه وتعالى». كما يمكن أن نقول مع بارندر:

«كان لفظ الجلالة «الله» يشير إلى كبير الآلهة في الجاهلية»[٣].

ومن ثم نستدل على أن ذكرهم لله في غير الجدل عن العقيدة والإيمان، يعني «الله» في المعتقد الوثني.

فهم حقاً يحلفون بالله، ويقولون: لله دره، حاشا لله. . . إلخ، بيد أن هذه الأقوال مفرغة من مضامينها الدينية التي توحي بها، فالله هنا ليس الله المجرد عن التمثيل، بل الله الأكبر، أو كبير الآلهة الذي التبس عليهم بالله العظيم، كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [إبراهيم: ٦٣].

---

(١) العرب في العصور القديمة، ص ص٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٢) جواد علي، المفصل. . .، جـ٦، ص٣٣٥.

(٣) *Parrinder, Asian Religions, P.6.*

أو كما قال الأعشى:

كَدَعْوَةٍ مِنْ أَبي رِيَاحٍ يَسْمَعُهَا لاَهُهُ الكُبَارُ[1]

فاللـه مفرد الآلهة، إلـه: *God/Gods*، أو هو «الأب» في المسيحية، أو «يهوه» في اليهودية.

ولا بد لنا من توضيح مما أوردناه سابقاً، فإذا كانت بعض الأقوام أوجدت مجسماً تحت اسم «الله»، سيما ثمود، فإنه حتى لو لم يوجد مجسم بهذا الاسم عند قريش، فإن اللات تعكس ذلك التجسيم وتدل على أصل الاسم، كما وضح.

عند الأمم الوثنية الأخرى

المعتقد العام

يوضح رياض هذا المعتقد، فيقول:

«كانت هناك مجموعات مختلفة من الآلهة... ويكوِّن هؤلاء جميعاً مجمع آلهة يرأسه إله كبير لكن نفوذه ليس حاسماً بالنسبة لتصرفات كل الآلهة الأخرى...»[2].

ويميز رياض بين نوعين من «الإله الكبير»، النوع الأول: ذاك هو الذي يظهر عند أصحاب الحضارات العليا القديمة، كما كان في مصر الفرعونية، وبابل وآشور واليونان والرومان. والنوع الثاني: ينقسم إلى قسمين، وهو خاص بالبدائيين:

١ ـ الإحياء أو الاستحياء *Animism*، الذي دعا إليها إدوارد تيلور: وفحواها الاعتقاد بوجود كينونة غير مفهومة وغير محسوسة، أو كائنات غير مادية قد تكون أرواحاً أو أشباحاً أو عفاريت للسلف أو

---

(١) اللسان، «لوه»، وانظر البغدادي، الخزانة، ج٢، ص ص٢٦٦ ـ ٢٧٠.
(٢) الإنسان، ص٥٦١.

الحيوان أو النبات أو أي من الجماد المحيط (نهر ـ بحيرة ـ جبل)... إلخ.

٢ ـ الاعتقاد في إله واحد كبير في السماء، لكنهم لا يتقربون إليه كثيراً... وعلى هذا فأنصاف الآلهة أكثر فعالية من الإله الواحد عند البدائيين.

ولكن رياض على الرغم من قوله: «نجد اختلافاً وظيفياً كبيراً بين الفكرتين. فعند أصحاب الديانات العليا نجد للإله الواحد كل القوى ولأفعاله كل التأثير على الناس، بالإضافة إلى أنه خالقهم ومميتهم وهو الذي يبعثهم من جديد في الآخرة. بينما لا نجد هذه الصفات الخَلقية واللاهوتية عند إله البدائيين الواحد، كما أن فكرة الحياة الأخرى غير واضحة، وفكرة الخلق عندهم ليست مرتبطة بالإله مباشرة وإنما قد ترتبط به بطريق الصدفة. وتحل كثير من الصدف كل الفعل الإلهي في خلق الجماعات والناس. وبذلك فإن مجرد وجود فكرة الإله الواحد الذي في السماء عند بعض المجتمعات البدائية أو الأمية ليس دليلاً على التوحيد الغريزي «الفطرة» أو الإلهي.. بل إن وجود هذا الإله لا يمنع وجود ممارسة أيديولوجيات أخرى كالاستحياء والمانا والسحر والعرافة»[١].

ويعود رياض مرة أخرى ليقول:

«إن هناك عدداً من الدارسين يعتقد أن الوحدانية كانت أسبق على فكرة تعدد الآلهة»[٢].

وهذا عدم ثبات على رأي محدد، ومن الواضح أن أصحاب الحضارات العليا، والبدائيين، كلهم سواء في تعاملهم مع الإله/ الآلهة.

---

(١) المرجع نفسه، ص٥٦٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٦٢. وانظر، ص ص٥٥٨ ـ ٥٦٢.

ولاحظ أنه يتحدث عن الفراعنة والبابليين والآشوريين، وهؤلاء كلهم وثنيون، دعا موسى عليه السلام فرعون إلى عبادة الله، فتظاهر بإنكاره، ودعا إبراهيم عليه السلام نمرود وقومه، فرفضوه. وأخيراً دعا محمد ﷺ العرب الوثنيين، فحاربوه.

نماذج وثنية

الفراعنة

وإن ما يشاع من أن الفراعنة موحدون غير صحيح إطلاقاً، فهم كالوثنيين عامة، آمنوا بالقوة العليا الغيبية، ثم خلقوا نداً لها، ففي الأصل كانت القوة العليا، (نتر) بتاح، ثم حورس، أو الشمس، أو رع(١). والتوحيد الذي يروج بين الكتّاب هو التخلي عن القوة العليا وعبادة القوة المضارعة في عهد أخناتون، أي: الشمس. وهذا المعتقد هو الخطوة الوثنية المعتادة، كما جاء في الآية السابقة:

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ ...﴾.

وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان فرعون:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨].

وقوله تعالى على لسان فرعون أيضاً: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩].

قبائل جابا Jaba في نيجيريا

نوم *Nom*: الإله الأعلى مسكنه في السماء.

---

(١) *James, The Ancient Gods, P.71.*

وانظر: إرمان، ديانة مصر القديمة، ص ٣٠؛ وبقية الكتاب.

الشمس: نوم *Nom*.

ونوم هو خالق السماء والأرض، ولكن الجابا، مع ذلك، لا يتوجهون مباشرة إلى «نوم»، بل يصرفون كل طاقاتهم الروحية إلى الكهنة، والمعابد، والمذابح المقدسة(١).

قبائل اليوروبا Yoruba النيجيرية

تعتقد اعتقاداً قوياً بالقوة العليا *Supreme Being*، ولكن ليس لها تصور واضح عنه، فهم لا يعبدونه، وإنما صلتهم بآلهتهم الأرضية. وهكذا كثيرون غيرهم أيضاً(٢).

النوبة

«ويؤمن سكان النوبا بإله قوي يسمونه في لغة (الدلنج) أكبر مجموعاتهم (بعل)، ولا يقوم بأعماله بنفسه بل يوكل بها عدد من الأرواح اسم كل منها (آرو). ولكل مجموعة من السكان في جبل أو قرية تنظيماتها الدينية الخاصة بها. ويبنى للآرو في كل قرية مكان يوضع فيه الطعام والشراب لتجد هذه الأرواح حاجتها منه عندما تنزل إلى الأرض. ويمثل الأرواح على الأرض كاهن هو (الكوجور) تتخيره الأرواح وتتحدث عن طريقه إلى الناس وهو فاقد الوعي فإن مات اختارت غيره»(٣).

ويقول العقاد:

---

(١) *Koto, Theological Pitfalls, PP. 30-31.*

(٢) *Ibid, P.35.*

(٣) شاكر، السودان، ص٦٤. يقول أستاذنا عبد الهادي: يعني بعبارة «فاقد الوعي»، أي عندما تتلبسه الأرواح، يكون في حالة غير طبيعية، أي متصل بالآلهة: لعل «بعل» الذي ذكره شاكر، هو تل *Till* كما سيأتي.

«قبائل الهوتنتوت الإفريقية التي لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ولا يزال الناس منها يأكلون لحوم البشر تعرف إلهاً واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء»(١).

أي: إن الرابط بين القوة العليا (الله)، في الوثنية، والتجسيد («الله» عند العرب والساميين ـ أو أي اسم آخر) ـ هو الشعور بالحُلُوليّة، أو التَّقَمُّص، بحيث يبدو الاثنان واحداً؛ ومن هنا كان الخطاب الإلهي في القرآن الكريم، نحو الله الواحد الأحد، في حين أن العقلية الوثنية كانت ـ وما زالت ـ لا تفرق بينهما، ولهذا كانت فكرة البنوة.

وعندما كان الله سبحانه وتعالى يخاطب الوثنيين بأنهم يعترفون بأنه خالق الكون، ومنزل المطر، والمنقذ وقت الضيق. . . إلخ. كان يؤكد على تعميق هذا الاعتقاد الأزلي؛ إذ تزعم قبائل الدوجون *Dogon* الأفريقية، مثلاً، أن الإله «أما *Amma*»، خلق النجوم والشمس والقمر، ومع ذلك، فهم يعتقدون بالبنوة، وهناك في جبال كارلنجا بالسودان الإله موسلا *Musalla*؛ ولدى أقزام تيري *Tiri* الإله مانجو *Mangu*. وعند بعض قبائل البانتو *Bantu* الإله مولونجو *Mulungo*. أي: إن خَلْق الإنسان والسماوات والأرضين (الأجرام السماوية)، والظواهر الطبيعية: (المطر، والرياح، والزرع، والماء. . . .)، هو من ذلك الإله الأعلى.

---

(١) «الله»، ص ص٣٠ ـ ٣١. وانظر بقية الكتاب.

والواقع أن كتاب العقاد يعد ترجمة لما قاله الغربيون حتى عصره، عن منشأ الديانات، ففي عصره وما قبل عصره كان أوج اشتداد حركة الدراسات الأنثروبولوجية. ولهذا نجده يخلط كثيراً في مفهوم التوحيد خاصة. انظر موقفه من توحيد أخناتون، ص ص٧٠ ـ ٧٤. وانظر قوله مثلاً: «عبادة «أتون» هي أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد»، ص٦٧. وبهذا ينسخ العقاد الدعوات السماوية منذ الأزل للتوحيد.

ونتبين هنا أن مفهوم التوحيد مفهوم إلهي، صحب الإنسان منذ خَلْقه الأول أي: «الفطرة»، ثم عاد الإنسان نفسه، فخلق أنساقاً من عنده، تمثلت في كل المظاهر الوثنية؛ وهذا ما حدث مع بني إسرائيل، بعد خروجهم من مصر، فقد سارعوا إلى عبادة العجل، وما يزال نبيهم وخليفته حَيَّيْنِ، ونسوا فضل الله عليهم، أي إن كلا الاثنين يأخذ مسمى واحداً، الخالق الأزلي، ثم الخالق المباشر في تصورهم.

ونجد على هذا النسق، عند قبائل الإنجاسانا *Ingassana*:

تل: الإله أصل الكون وخالقه.

الشمس: تل الصغير.

وعند قبائل شمال جبال النوبة:

أبراد *Abrade*: الإله الكبير.

الوسيط الروحي، أو الشخص الذي تقمصه روح الإله، أو روح الأسلاف: إبراد (الصغير).

وعند قبائل جنوب جبال النوبة:

موسلا: الإله (الكبير) ـ القوة الكبرى.

موسلا ماتيتيك، والا ما دابو *Mussala maa Titik, Walla maa dappw*: القوة الصغرى التي تجسدت في الكجور *Kujur*، أو التي حَلَّت فيه.

ويمكن تحديد المعتقد الوثني في الألوهية بمعطيات مستنبطة من المادة الأثنوجرافية المتاحة عن تلك الشعوب الوثنية وثيقة الصلة بالألوهية.

أولاً: اعتقاد الشعوب الوثنية في إله أسمى أو خالق متعال، كلي القدرة، منعزل عن البشر، يكتنفه الغموض إلى حد كبير.

ثانياً: قد يغلب عليها طابع التعدد كما نجد لدى الدينكا الإله الأسمى والآلهة العشائرية، وكما نجد عند اليوربا حيث الإله الأعظم «أولودومار» خالق كل شيء وآلهة أخرى أقل مرتبة لها معابدها، وكهنتها وأعيادها واحتفالاتها. وكما نجد لدى قبائل الأنقسنا حيث الإله «تل» أصل الكون ومصدر الحياة، إلخ...

ثالثاً: يعتقدون أن هذه الآلهة دائمة الحركة وجودها وحضورها دائم، وأن رؤية الآلهة واردة في إدراكهم، وإن كان بعضهم يقصر هذه الرؤية على الزعماء الروحيين أو الوسطاء ممن لهم حق الامتياز الشعائري.

رابعاً: على الرغم من الإيمان المطلق بفكرة الألوهية (الوحدانية أو التعدد) فإنهم لا يهملون الآلهة العشائرية أو القبلية أو الزعماء الروحيين، إنهم يدركون أنها أقل قدرة ولكنها أكثر تأثيراً وفاعلية لأنها أكثر قرباً من الآلهة. ومن ثم، فإن قنوات الاتصال بالآلهة أو الكائن الأعلى على حد زعمهم قد تكون عن طريق الطوطم أو زعيم روحي أو تعويذة أو أي شيء... إلخ.

خامساً: إن ثمة ارتباط بين الآلهة وقوى الطبيعة الخفية غير المدركة.

سادساً: إن البناء الكهنوتي وما يحويه من شعائر وطقوس وثيقة الصلة بالسحر والممارسات السحرية والشعوذة والأرواح، يسخر بطريقة أو أخرى لخدمة الآلهة بقصد تحقيق التجانس بين الإنسان والإله، واستبعاد التنافر الكوزمولوجي أو التغييرات في الظروف البيئية كالقحط والجفاف والوباء فضلاً عن المرض والموت والحظ العاثر، وهنا يأتي دور القربان للسيطرة على القوى الطبيعية الخفية[1].

---

(١) إسماعيل، تأثير الإسلام، ص ص١٧، ٣٧ ـ ٥٠؛ وما بعدها.

فنحن هنا أمام تصور صريح للعلاقة الوثنية بالقوة العظمى (الله) جل شأنه، وهو التصور الذي جاء الإسلام. . .، لمحوه، والقضاء عليه. أما منشأ تلك العلاقة الوثنية، فهو أن الإنسان، المولود على الفطرة، أي على التوحيد، خرج على تلك الفطرة، فجعل عبر مراحل زمنية مختلفة، مُمَثِّلاً للإله الأوحد، وصَوَّره على الأرض، ثم حل بعده الملك، كما كان الفرعون في مصر، وتقاسم السلطة الدينية والزمنية معه بعد ذلك، كما في الديانة الأكدية، ثم أصبح الملكُ مُمَثِّلاً للآلهة، كما في الديانة البابلية والإله الشمس، ومن ثم وجدنا في السامية الإله[1]:

إيلو: أي الله.

وكانت المرحلة الوثنية تبدأ بتعيين إله للمدينة، ثم تحولت إلى الإله والملك، ورمز لها بقرنين للحاكم، ثم افترقت السلطتين، فهذا يمثل السلطة الدينية، وذاك يمثل السلطة الزمنية، وكان لحمورابي قرنان[2].

وهكذا خرج الإنسان إلى عبادة غير الله، أي إلى الوثنية.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ . .﴾ [الذاريات: ٥٠].

= والكتاب قيّم جداً في فهم الوثنية، سواء من حيث علاقة الكوجور، الذي يشبه الكاهن في الجاهلية، ومثال الكاهن شِق الذي تظهر عليه حالات مشابهة في التقمص، أو في مختلف العبادات عن الإله والآلهة. .

والجدير بالذكر أن للوسطاء الروحيين قوة تضارع قوة الإله، بل تفوقها، وهي أكثر خيراً منها.

انظر المرجع نفسه، ص ص٨٩ ـ ١٠٢.

(١) انظر هذا في: المرجع نفسه، ص ص٦٠ ـ ٦١.

(٢) كييري، كتبوا على الطين، حاشية المترجم، ص٩٧.

لقد جاء الإسلام للقضاء على ذلك التصور الآخر، ذلك أن الوثني لا يمكنه تصور الفكرة المجردة، ولهذا يلجأ إلى التجسيم وتقريب التصورات.

وحبذا لو أعدنا دراساتنا لكل المفاهيم الوثنية، في ضوء الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة، فسنعلم الكثير عن الكُهَّان، والسَّدَنَة، والعرافين... إلخ. وسنفسر كثيراً من العادات الجاهلية تفسيراً منطقياً معقولاً، بدلاً من الركام من الكتب والمقالات التي تكرر نفسها وتتخذ المشاهد للوصف، لا للتحليل.

وما الوثنية؟ أليست الوثنية هي الواضحة في قول الجعدي، في جاهليته:

قالت أمامة كم عُمِرتَ زَمانةً وذبحت من عِتر على الأوثان

في مقابل قوله مسلماً:

وعُمِّرتُ حتى جاء أحمد بالهدى وقوارع تتلى من الفرقان[1]

ألم يقل كعب بن زهير في معنى دقيق آخر لمفهوم الوثنية، في مقابل الإسلام:

أرادوا اللات والعزى إلهاً كفى بالله دون اللات كاف[2]

(١) شعره، ص ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) ديوانه، ص ٢٤٧.

الفصل الرابع

البعث والنشور في المعتقد الوثني (العربي)

المعتقد الإسلامي والمعتقد الوثني

أثبت القرآن الكريم المرتكزات الأساسية لأي معتقد وثني، كما تبينا، وهي مرتكزات رئيسة في التفرقة بين دين التوحيد، ودين الأوثان. وهناك فارق جوهري بين التصورين؛ فعلى حين لا يرى الوثنيون إلا الحياة الدنيا فقط، يؤكد الإسلام على الحياة الأخرى؛ ويشير القرآن الكريم إلى أن الوثنيين من العرب لم يتركوا أبداً مجالاً للمناقشة والحوار حول رؤيتهم:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل: ٣٨].

فليست المسألة مجرد اعتقاد قد يهتز يوماً، وإنما هي قناعة جدلية سابقة، حتى إن أي عودة للتساؤل عن وجهة الصواب فيها معدود سلفاً نوعاً من الخلل العقلي والزيغ المنطقي:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سبأ: ٧ ـ ٨].

فالموقف المشترك حيال هذه القضية المصيرية يتلخص في أن الاعتقاد المبدئي هو: إن كان التفكير في وجود قوة إلهية واحدة

أسطورة، فإن ما يتأسس على ذلك من علاقات هو أسطورة أيضاً. وهذا الموقف ـ بداهة ـ في التوحيد مرفوض كلياً:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: ٦٧ ـ ٦٨].

ومن ثم كانت قوارع القرآن الكريم تترى على وثنيّ العرب، الواحدة تلو الأخرى، تلحّ على دحض هذا المعتقد:

﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الواقعة: ٤٧ ـ ٤٨] وانظر [الصافات: ١٦ ـ ١٧].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ [القيامة: ٣].

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠].

إن عقيدتهم تجاه البعث والنشور عقيدة ثابتة لا جدال فيها:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان: ٣٤ ـ ٣٦].

ويمكن اختصار هذه المواقف المتصلبة في قوله تعالى:

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [القلم: ١ ـ ٣].

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه:

«إن القوم لم يكونوا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، ولا يعرفون بعثاً ولا قيامة»[1].

فلا حساب، ولا ثواب آتيان من الله، وإنما ترجع كل الممارسات الشعائرية لمعتقد ما بعد الموت، إلى تصورات وثنية ذات غايات محدودة، قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣٢].

البعث والنشور في المعتقد الوثني العالمي

إن معتقد العرب السابق ما هو إلا صورة من التشكيل الأكبر للوثنية عند البشر كافة، فهم مهما تباينت وجهات نظرهم حول الحياة والموت، لا يؤمنون أبداً بالحياة الثانية. وقد اتخذ القرآن الكريم من قوم نوح أنموذجاً لذلك التصور، فقال تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٣٢ ـ ٣٨].

ويمكن تلخيص الموقف الوثني العام من البعث والنشور

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٠٦.

والحساب والعقاب، في هذا الحوار العظيم بين رمز الإيمان ورمز الوثنية، في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: ١٧ ـ ١٨][١].

ومن ثم يقول تعالى في كشف معتقد الوثنيين عن الحياة الأخرى:

﴿... كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

أي: لا حياة ثانية عندهم، ولا لقاء يوم يبعث من في القبور، حسب التصور الإسلامي.

---

(١) نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، قبل أن يسلم. السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ص١٩١.

الفصل الخامس
مظاهر الاعتقاد الأُخْرَوي في الوثنية

يتخذ بعض الكتاب من بعض طقوس الدفن عند العرب حجة يعترض بها على إنكار الحياة الأخرى، وكأنّ شيئاً مما ذكره القرآن الكريم ليس له أثر. يقول زيتون:

«إن اعتقاد هؤلاء الجاهلين في البعث أمر لا جدال فيه»(١).

ويقول بافقيه:

«ومهما يكن من أمر عناية اليمنيين القدماء بالمدافن فإنه ينبغي ألا تفوتنا ملاحظة احتواء مدافنهم وخاصة الكهفية منها على أوان ومواد حياتية أخرى تدل مثلاً... على إيمان القوم بحياة أخرى بعد الموت»(٢).

ويقول شامي:

«إن منهم - أي المشركين - من كان يؤمن بالحشر والمعاد، وإن بصورة ساذجة، فيوصي بأن تنحر ناقته على قبره ليتمكن من يوم الحشر من الركوب عليها، وإلا مشى مع من يحشر ماشياً لا راكباً»(٣).

ومن حجج هؤلاء الاستشهاد بالهامة والصدى والبلية:

---

(١) الوثنية، ص٢٧١. وانظر جواد علي، المفصل، ج٦، ص١٢٩.

(٢) تاريخ اليمن القديم، ص٢٠٦.

(٣) الشرك، ص٢٩.

وَالـبَـلاَيَـا رُؤُسُـهَـا فِـي الـوَلاَيَـا   مَـانِحَـاتُ الـسَّـمُـومِ حُـرَّ الـخُـدُودِ(١)

وهذا التصور هو ما نجده في قول مالك بن الريب:

وَعَـطِّلْ قَـلُوصِي فِي الرِّكَـابِ فَإِنَّـهَـا   سَـتُبْـرِدُ أَكْـبَـاداً وَتُـبْـكِي بَـوَاكِـيَـا(٢)

وكذلك، فإن عقل البعير في دار المقتول له ارتباط بالمسلك السابق، لما له من علاقة بمقتنيات الميت(٣).

وعلى الرغم من أن هناك من يزعم أن زهير بن أبي سلمى كان حنيفياً، مع أنه القائل:

فَأَقْسَـمْـتُ جَـهْـداً بِالـمَـنَـازِلِ مِنْ مِنَى   وَمَا سُحِفَتْ فِيهِ الـمَـقَادِيمُ والْقَمْلُ(٤)

أي: إنه كبقية الوثنيين يمارس عادة تقديس الدم، المحرم في الإسلام، وهو يؤدي ذلك في طقس وثني. بل هو القائل:

رَأَيْتُ المَـنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ   تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ(٥)

حتى إنه يُضم إلى الزنادقة(٦)، فإن شاهدهم المتكرر هو قوله:

يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ   لِيَوْمِ الحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

أو قول الآخر:

لاَ يَـشْـرُكَـنَّ أَبَـاكَ يُـخْـشَـرَ مَـرَّةً   عَذواً يَخِرُّ عَلَى اليَدَيْنِ وَيَنْكُبُ(٧)

---

(١) السهيلي، الروض الآنف، جـ٢، ص١٠٥. الولايا: البرادع، وكانوا يثقبون البَرْذعة، فيجعلونها في عنق البلية وهي معقولة حتى تموت.

(٢) اللسان، «برد». القلوص: الناقة. الركاب: الإبل.

(٣) المصدر نفسه، «عقل».

(٤) شرح شعر زهير بن أبي سلمى، ص٨٥. سحفت: حُلقت. المقاديم: مقاديم الرؤوس.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٤. العشواء: الناقة تعشو، أي لا تبصر ليلاً.

(٦) الجياووك، الحياة والموت، ص٤٧.

(٧) السهيلي، الروض الأنف، جـ٢، ص١٠٥.
وانظر كتاب: الدم المقدس عند العرب.

ولا علاقة لهذين الشاهدين بالحنيفية، وإنما هو من صُلب معتقدات الوثنية التي تعتقد أن الموت مرحلة مرتبطة بالخصب والانبعاث: «وأيا كان الأمر فإن... الوثنيين لا يعتقدون في البعث أو أن ثمة ثواب وعقاب... ولا يعني حرصهم على دفن مقتنياتهم أن لديهم فكرة البعث أو الحياة الأخرى، وإنما مَرَدّ ذلك إلى الخوف والتشاؤم من استخدام ممتلكات الميت ومقتنياته ومن ثم فإنهم يتخلصون منها بإيداعها في قبره... الموت... انتقال إلى عالم آخر في حقيقة الأمر... امتداد لعالمهم ولكنهم لا يرون أن هناك بعثاً أو ثواباً أو عقاباً». إن يوم الحساب في نظر الوثنيين هو في أحسن أحواله ما نراه في شعائر الموت الفرعونية، أو في الأساطير اليونانية، وذلك مثل الاعتقاد في الوقوف أمام الإلهة أوزيريس والاثنين وأربعين مستشاراً قضائياً في قاعة الحقيقة الثانية ***Double Truth*** كما يتمثل هذا في كتاب الموتى ***The Book Dead***[١].

ويندرج ضمن هذا المعتقد قول لبيد، إذا كان البيت جاهلياً:

وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْماً سَيَعْلَمُ أَنَّهُ   إِذَا كُشِفَتْ عِنْدَ الإِلَهِ المَحَاصِلُ

فإن لم يكن البيت جاهلياً، فهو كما قال ابن قتيبة:

«يدل على أنه قيل في الإسلام، وهو شبيه بقول الله تعالى (وحصل ما في الصدور)»[٢].

رمز الحياة الأخرى

لا يتركُ كشفُ القرآنِ الكريم عن معتقد الوثنيين عامة في البعث والحشر أيَّ افتراض لإثبات وجوده حسب التصور الإسلامي ليوم

---

(١) إسماعيل، تأثير الإسلام على الوثنية، ص١٦٦، وانظر ص ص ١٥٢ ـ ١٦٧.
Faukner, Book of the Dead..
وعند البابليين، حنون، عقائد ما بعد الموت.

(٢) الشعر والشعراء، جـ١، ص٢٨٠.

القيامة، والتفسير الطبيعي لمثل تلك الممارسات على تعدد مظاهرها وتنوعها، هو أنها رموز ـ في عقائد الوثنيين عامة دون خلاف ـ على عقيدة الولادة والانبعاث، فالموت والفناء، أي: الخصب والحياة(١).

أي: إن الاعتقاد بالحياة الأخرى في المعتقد الوثني لا يتجاوز إطار الاتصال بالأرواح في العالم الأرضي، ولا شك أن الكهنة يتولون تفسير دور هذه الأشباح، بحيث لا يتجاوز تصورهم الحياة المعيشة السابقة للإنسان نفسه. ومهما بلغ الوثني في تصوره صلاتٍ علوية، فإن هذه الصلات تظل مشوشة في محيط الآلهة نفسها(٢).

الدهريون

من الأمور العجيبة في دراسة وثنية العرب محاولة إيجاد تفرقة بين الوثنيين والدهريين، في حين أن كليهما واحد. فالوثنيون، مهما كانت أحوالهم ـ هم دهريون ـ بالضرورة. وهذا واضح فيما بينه القرآن الكريم عن عقيدة البعث عند الجاهليين، وليست هناك علاقة بين الإلحاد والدهرية، فالعالم القديم لم يعرف الإلحاد.

«ولم يعثر الباحثون حتى الآن على مجتمع بدائي ينفي وجود الطاقات والقوى فوق الطبيعية»(٣).

---

(١) انظر عن الموت عند الوثنيين *James, The Ancient Gods, PP. 168-198.*

(٢) *Middleton, Gods & Rituals, PP. 3-15.* وانظر، رياض، الإنسان، ص ٥٦٧.

(٣) رياض، الإنسان، ص ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣. وانظر عن الدهرية، الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص ص ٨٥ ـ ٩٣.

والحقيقة أن هناك علاقة تلازم بين الثقافة والدين. وما ذكرناه هو ما يستدل عليه من القرآن الكريم؛ ومن إن البوذية التي يُزعم أنها لا تؤمن بالله، هي ديانة وثنية، كما تتمثل في معبوداتهم المجسّمة: تمثال بوذا مثلاً، أي إن أصولها ليست دهرية بالمعنى الفلسفي.

إن القرآن الكريم لا يفرِّق مطلقاً بين هؤلاء الدهريين وبين غيرهم من والوثنيين، وهو يثبت أن أي وثني دهري، إن منطق الوثنيين أنهم دهريون:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٣ ـ ٢٤].

وفي هاتين الآيتين: «اتخذ إلهه هواه». أي الوثني دونما تحديد. «قالوا»، أي واو الجماعة يعود للوثنيين، وبعده: «حياتنا»، «يهلكنا»: (نا) المتكلمين، أي الوثنيين، وكذلك «يظنون»، واو الجماعة، أي الوثنيين!!!

مظاهر وثنية أخرى

ولا حجة بعد ذلك في طوافات الجاهلية وأذعِيَاتِها، فكلها كانت موجهة إلى الآلهة الوثنية، حتى إن الحج والاعتمار كانا لغير الله، وإنما للآلهة التي تسكن الكعبة، والتي حطم الرسول ﷺ أصنامها، إضافة إلى أن الحج والاعتمار لم يكونا قاصرين على الكعبة، بل كانت هناك مَحَجَّات وثنية أخرى غيرها، أي بيوتات. وكذلك الصلاة.

وهناك من يُرجِع عقيدة «الحُمْس»، إلى ما قبيل الإسلام، وأنهم المتشددون في دينهم، المتحمسون له، وأنهم قبائل شتى[1]، والأولى من هذا التفسير أن نقول: إن الحمس عقيدة وثنية قديمة صاحبت الوثنية في كل تاريخها، وأن الحمس طائفة دينية متخصصة في تسيير أمور الدين والقيام عليه، وأن كلمة الحمس لم تأت من الحماسة،

---

(١) جواد علي، المفصل، جـ٦، ص ص٣٦٤ ـ ٣٦٧.

وإنما جاءت من لبس السواد، لباس الكهنة. قال الأفوه الأودي:

كَالأَسْوَدِ الحَبَشِيِّ الحَمْسِ يَتْبَعُهُ   سُودٌ طَمَاطِمُ فِي آذَانِهَا النُّطَفُ(١)

أو لأنهم يتخذون اللون الأحمر شعاراً لهم(٢).

وأمر آخر له علاقة بالوثنية، وهو وصف بعض الشهور بأنها (شهور حرم). ومرجع هذا الوصف هو الاعتقاد في أن هذه الأشهر كانت رموز آلهة، أي كانت في الأصل أسماء آلهة عند العرب. فمثلاً جمادى الآخرة، كانت تسمى «حُنَين»، وكانت تُدعى: الرب. قال أحدهم:

أَتَيْتُكَ فِي الحُنَيْنِ فَقُلْتَ رَبِّي   وَمَاذَا بَيْنَ رَبِّي وَالحَنِينِ(٣)

ومعلوم أن شهر رجب كان شهر ذبح العتائر في الجاهلية.

الفِرق الوثنية

من طبيعة البشر أن يختلفوا، وأن يشتد الصراع بينهم حول تفسير المعتقدات والأفكار. وما لم يتمسك الإنسان بمبادئ الرسالة السماوية، ويتجنب الدخول في الميتافيزيقيا والفلسفة، فإنه سيظل في دوامة الأفكار. والوثنيون ليسوا بدعاً في هذا، فهم أيضاً فرق وطوائف، كل جماعة دينية ترى أنها على حق وصواب، وأن غيرها على باطل وضلال، وهي لهذا تدعو اتباع الفرق الأخرى لتقبل طرحها الديني، وكان بعض وثني العرب يفعل هذا؛ يقول عبيد بن الأبرص:

وَتَبَدَّلُوا اليَعْبُوبَ بَعْدَ إِلَهِهِمْ   صَنَماً فَقَرُّوا يَا جَدِيلُ وَأَعْذِبُوا(٤)

---

(١) اللسان، «طمطم».

(٢) وانظر كتاب الدم المقدس عند العرب.

(٣) التاج، «حنن».

(٤) ديوان عبيد، ص١٣. أعذبوا: كُفّوا.

يقول الله تعالى عن فرق الوثنيين، الذين كانوا يعبدون، النجوم، والأحجار، والأشجار، والأرواح، والأصنام... إلخ:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

بل بلغ الأمر بهذه الفرق والطوائف إلى التناحر والتطاحن فيما بينها لفرض معتقداتهم على بعضهم.

وهو صراع الآلهة فيما بينها في المعتقد الوثني.

الفصل السادس

الحنيفية

في القرآن الكريم

لا يبقى مجال، بعد تأكيدات القرآن الكريم على معنى الوثنية، لأن يزعم زاعم أن هناك ديناً بين العرب قبل الإسلام يعرف بـ«الحنيفية». فلم يذكر القرآن الكريم في السور المكية ما يشير إلى (الحنفاء) في عصر الرسول ﷺ، وإنما جاء ذكر الحنيفية كمرحلة انقطاع، تفصلها عن بدء البعثة النبوية فترة طويلة من الوثنية، أي إنها كانت محصورة في عهد إبراهيم عليه السلام، قال تعالى في سورة الأنعام المكية، آية ١٦١:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾، وقال الله تعالى كذلك في سورة يونس المكية، آية ١٠٥ ـ ١٠٦:

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

كما جاء في سورة النحل المكية، آية ١٢٠:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

وجاء في سورة النحل المكية أيضاً، آية ١٢٣:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وجاء في سورة الروم، آية ٣٠:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وهنا نجد مقارنة بيّنة بين دعوة التوحيد، كما جاء بها إبراهيم عليه السلام، والتي تتمثل الآن في دعوة محمد ﷺ، والوثنية المعبّر عنها بـ«ما كان من المشركين» الذين يدعون من دون الله إلهاً آخر، الأمر الذي يعني أن الوثنية كانت في ذلك العهد هي الغالبة السائدة.

فإذا انتقلنا إلى السور المدنية، وجدنا آية تقول:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥].

فنحن هنا أمام الحنيفية ـ دين الإحياء الجديد، الإسلام، دين التوحيد؛ وكل ما عداه من ديانات محرفة، أو وثنية خالصة، فهي شرك صريح، أي: كفر. قال تعالى في سورة البينة ـ المدنية، الآيات ١ ـ ٦:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾. وانظر [الحج، ٣١ ـ المدينة].

إذن، كان هناك جماعات ثلاث: الوثنيون، واليهود، والنصارى؛

إزاء دعوة التوحيد: الحنيفية التي يدعو لها الرسول ﷺ.

والملاحظ في الآيات القرآنية المكية، وحتى هذه الآيات المدنية، ما عدا آية النحل المكية، ١٢٠، أن هناك أوامر صادرة من الله العلي القدير لنبيّه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي ...﴾، ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ ...﴾، ﴿اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾، ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾، وهذا يعني أن الحنيفية، ملة إبراهيم، أو دين الحنيفية، لم تكن معروفة سابقاً، ولم يتهيأ لها الديمومة والاستمرار، وأن الذي بدأ بالدعوة إلى تجديدها وإحيائها هو محمد ﷺ، فما كان معروفاً في العهد المكي خاصة، هو الوثنية فقط، على أنها ديانة مناوئة لدعوة التوحيد الخالصة: أي الحنيفية.

وظلت الوثنية في العهد المدني، تحتل مكانة مقارنة، وبرزت إلى جانبها الديانات المعروفة الأخرى، مع ملاحظة وجود جماعة دينية غير معهودة، سمّاها القرآن: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي هم الآن المسلمون: أصحاب الحنيفية. قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِـِٔينَ ...﴾ [البقرة: ٦٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِـُٔونَ وَالنَّصَٰرَىٰ ...﴾ [المائدة: ٦٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِـِٔينَ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ...﴾ [الحج: ١٧].

وإذا ما اختصت كل جماعة بتسمية محددة: كاليهودية والنصرانية... إلخ، فإن مفهوم «المسلمين»، كان أعم وأشمل:

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

ذلك أن كل الدعوات الدينية من إبراهيم عليه السلام حتى محمد ﷺ، هي في جوهرها دعوة إلى الإسلام، إلى التوحيد، إى عبادة الله المعبود بالحق، ولكن ما من أحد أخذ صفة (مسلم) بعد أن حرّف اليهود والنصارى ديانتيهما، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا . . .﴾ [آل عمران: ١٩] غير أتباع محمد ﷺ. قال تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧] وقال سبحانه: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى . . .﴾ [الحج: ٧٨].

وعلى هذا الأساس، فلم توجد هناك فرقة توحيدية (حنيفية) قبل البعثة النبوية، ولم يكن محمد ﷺ أحد أتباعها المصلحين *Reformers*، قبل هبوط الوحي عليه في غار حراء[(١)]، بل كان الكون كله ينتظر، وكانت الظروف العالمية كلها مهيأة لاستقبالها. قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

فالإيمان، أي: التوحيد، أو الإسلام، أو الحنيفية، كان غير معروف، لا لمحمد ﷺ، ولا لبشر سواه، قبل بعثته ﷺ.

---

(١) انظر مثل هذه الفرية في:

Tisdal, The Original Sources of the Qur'an, PP. 260-273.

وانظر *Watt, Hanif, E.I, III, PP. 165-166.*

Rodinson, Mohammad, P.60.

قال تعالى في إبراهيم عليه السلام:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٨].

أي إن الإيمان باق، مهما غلبت الأهواء، واستسلم الإنسان لغي الشيطان وإغوائه. وقد غبرت القرون والأجيال، وكلما جاء مجدد للتوحيد، من الأنبياء والمرسلين، جاء من غيّر الدين الحنيف، كما فعل اليهود مع هارون، بعد تغيّب موسى عنهم مدة قصيرة. وتشوه التوحيد على يد اليهود، ثم النصارى، حتى جاء الرسول محمد ﷺ، فبعثه الله برسالة التوحيد ثانية:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف: ٢٩].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٩].

أما موقف الديانات السماوية بعد تحريفها، فهو كما يقول تعالى:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى: ١٥ ـ ١٦].

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

إنهم والمشركين في الكفر سواء، وهذا صريح في سورة آل عمران المدنية، الآيتان ٧٩ ـ ٨٠، بعد ذلك:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾. وانظر [النساء: ١٧١] [المائدة: ٧٢].

في الشعر

فإذا كان القرآن الكريم لا يثبت أبداً الحنيفية كدعوة دينية معاصرة للرسول ﷺ، فكيف تكون معروفة في الشعر، وليس في الشعر الجاهلي كله ذكر للحنيفية، إلا قول أبي ذؤيب الهذلي:

عَرَفْتُ الدِّيَارَ لأُمِّ الرَّهِيـ ... ـنِ بَيْنَ الظُّبَاءِ فَوَادِي عُشَرَ
أَقَامَتْ بِهِ فَابْتَنَتْ خَيْمَةً ... عَلَى قَصَبٍ وَفُرَاتِ النَّهَرْ
أَقَامَتْ بِهِ كَمُقَامِ الحَنِيـ ... ـفِ شَهْرَيْ جُمَادَى وَشَهْرَيْ صَفَرْ
تَخَيَّرُ مِنْ لَبَنِ الآرِكَا ... تِ فِي الصَّيْفِ بَادِيَةً والحَضَرْ(١)

ومعلوم أن أبا ذؤيب كان شاعراً مخضرماً، أسلم مع قومه متأخراً، فالبيت على هذا، قاله بعد أن أخذت دعوة محمد ﷺ طريقها إلى قلوب المؤمنين برسالته في بدء الدعوة في مكة، سنة ٦١٠م حتى الهجرة على الأقل، سنة ٦٢٢م، أي في زمن جاهلية أبي ذؤيب، و«الحنيف» في الأبيات، هو المؤمن بالإسلام.

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، جـ١، ص ص١١٢ ـ ١١٣.

الظباء: معرج الوادي. قصب: مياه تجري إلى عيون الركايا. الآركات: الإبل ترعى الأراك.

ومثل قول أبي ذؤيب، قول الهذلي الآخر، صخر الغي في وصف السحاب:

كَــأَنَّ تَــوالِــيَــهُ بِــالْــمَــلا   نَصَارَى يُسَاقُونَ لاَقَوْا حَنِيفَا[1]

وقد فسر السكري الحنيف، بأنه يعني هنا: المسلم. وهذا التفسير هو الصحيح والملائم تماماً للأحداث. فصخر الغي، الشاعر الجاهلي، يتحدث عن الفترة نفسها التي تحدث فيها أبو ذؤيب. وهذا الوصف السِّلْمي للعلاقة الودية بين النصارى وأوائل الدعوة الإسلامية في مكة، هو تصوير للعلاقات الطبيعية بين النصارى والمسلمين في تلك الفترة. ولا يمكن أن يبدي النصارى احتراماً للحنيفي، إلا إذا كان بمعنى «المسلم»، إذ «الحنيف» في مفهومهم السابق على مجيء الإسلام، الضال، أو الوثني.

ويؤيد هذا التفسير ما رواه المبرد من أن بسطام بن قيس بن خالد الشيباني، فارس بكر، وابن سيدها، وكان نصرانياً، والذي قتله بنو ضبة عندما أغار على إبلهم بعد البعثة سنة ٦١٠م:

«كان مقتله بعد مبعث النبي ﷺ، فأراد أخوه الرجوع إلى القوم، فصاح به بسطام: أنا حنيف إن رجعت»[2].

أما إذا لم يكن «الحنيف» في قول أبي ذؤيب وقول صخر الغي السابقين بمعنى «المسلم»، فهو لا محالة يعني الصابئ؛ وذلك: «أنه يندر منهم من يسكن بعيداً من الأنهار لحاجتهم إلى العماد، وإلى التطهر بالماء».. وهم **«يبنون الهيكل من القصب كما تبنى الخيام»**.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٩٧. تواليه: أواخره. الملا: الأرض المستوية. يساقون: يسقون في عيدهم. لاقوا: احتفلوا به، وكفّروا له، أي أحنوا رؤوسهم، وطأطأوها، تحية له.

(٢) المبرد، الكامل، جـ١، ص٢٢٩.

وهم «**يوقرون الكعبة**». وهم: «**يقيمون الصلاة مرات في اليوم... ولكنهم لا يسجدون في صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع، وهم يتوضأون قبل الصلاة ويغتسلون من الجنابة، ويعرفون نواقض الوضوء ولكنهم يغالون فيها**»(١).

وعلى هذا يمكن أن نأخذ بتفسير ابن منظور لمعنى «حنيف» في قول أبي ذؤيب، وهو:

«**أقامت به كمقام الحنيف: إنما أراد أنها أقامت بهذا المتَرَبَّع إقامة المتحنف على هيكله، مسروراً بعمله وتدينه، لما يرجوه على ذلك من الثواب**»(٢).

أي إنه يعني: الصابئ.

ولا يخرج استعمال حسان بن ثابت لهذا اللفظ عما عناه سابقَاه، قال في الفتح رادّاً على أبي سفيان بن الحارث:

هَجَوْتَ مُبَارَكاً بَرّاً حَنِيفاً   أمِينَ اللَّهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ(٣)

وهذا التعبير هو التعبير نفسه في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

حَمِدْتُ اللَّهَ حِينَ هَدَى فُؤَادي   إلَى الإسْلَامِ وَالدِّينِ الحَنِيفِ(٤)

وقد أجمع العلماء المسلمون على أن «الحنيف»، في كل الشواهد السابقة، تعني:

---

(١) العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ص١٤٢، ١٤٤.
وانظر ص ص١٣٩ ـ ١٤٨. ولعل الصفة الصحيحة هي: «الجنيف» كما سيوضح الراغب الأصفهاني. وانظر ما سبق.
(٢) اللسان، «حنف».
(٣) ديوان حسان، جـ١، ص١٨.
(٤) اللسان، «حنف». التاج، «حنف».

يقول أحدهم، مما يجمع الدلالات السابقة كلها:

تَعلَّمْ أنْ سَيَهْدِيكُمْ إلَينا طَرِيقٌ لا يجور بكم حنيف[(١)]

وهذا المعنى واضح في قول الجعدي:

وابن عفان حنيفاً مسلماً ولحوم البدن لما تُنْتَقَلْ[(٢)]

وعلى الرغم من أننا متمسكون بأن مصطلح الحنيفية إسلامي، فإن هذا لا يمنع أن يكون اتخذ له دلالة أخرى في غير اللغة العربية، فإذا خرجت الحنيفية عن التوحيد الخالص، كما جاء به الإسلام، فهي ليست من الحنيفية في شيء، وإنما هي فرقة ضالة تأتي في اللغة النبطية بمعنى: اليوناني، أحد الصابئة، أحد المانويين، أي ضال في اللغة السريانية، فالوثني *Hanpa*، والتعاليم المانوية هي: *Hanputa*[(٣)].

أو: «أحد أتباع فرقة من فرق ديانتهم السريانية - العربية المتأثرة إلى حد ما بالهلينية»[(٤)].

وعلى هذا يجوز أن يكون معنى حنف في معنى حنث[(٥)]. أما في المعنى القرآني، فالحنيفية هي التوحيد، الإسلام. والحنث غير معنى الحنف قبله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]. ﴿الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦].

لقد أدركنا أن معنى الحنيفية: هو الإسلام، أو التوحيد، في بيتي كل من أبي ذئيب وصخر الغي، وحسان، وهو المعنى الذي شاع بعد ذلك في مثل قول الشاعر الأموي، جران العود:

---

(١) اللسان، «حنف». (٢) شعره، ص ٩٤.

(٣) *Andrnm Mohammed.., PP. 152-153.*

(٤) نبيه أمين فارس وهارولد وجلدن، تطور معنى كلمة حنيف القرآنية، مجلة أبحاث، م١٣، (١٩٦٠م)، ص٣٦.

وله في اليهودية الدلالة نفسها، وهم في السريانية: الضالون.

انظر: *Tisdal, The Original Sources of the Quran, P.272.*

(٥) اللسان، «حنف». وانظر «جنف»، خنف».

وانظر: *Kister, Studies..., "Al - Tahannuth".*

وَلَمَّا رَأَيْنَ الصُّبْحَ بَادَرْنَ ضَوْءَهُ رَسِيمَ قَطَا البَطْحَاءِ أَوْ هُنَّ أَقْطَفُ
وأَدْرَكْنَ أَعْجَازاً مِنَ اللَّيْلِ بَعْدَمَا أَقَامَ الصَّلَاةَ العَابِدُ المُتَحَنِّفُ

وقال أيمن بن خريم:

وَصَهْبَاءَ جُرجَانِيَةٍ لَمْ يَطُفْ بِهَا حَنِيفٌ وَلَمْ تَنْغُرْ بِهَا سَاعَةً قِدْرُ

والعجب أن يسيء نبيه فارس وزميلُه، قولَ الشاعرِ الإسلامي، أبي الأخزر الحمّاني:

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا كَمَا أَسْجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ

فيقولان: «إن الإشارة إلى عدم الركوع في الصلاة تمنع احتمال أن يكون المراد من كلمة حنيف هنا هو المسلم».

فمعنى البيت واضح، وهو: أن هُويّ الناقة على ساقيها، يشبه هُويّ النصرانية ساجدة دون ركوع، وهو ما لا يفعله الحنيفي (المسلم)، فمعنى «لم تحنف»: أي غير مسلمة، إنها لا تتضمن المعنى الإسلامي. بل إن من سوء الفهم قولهما عن قول جرير في الفرزدق:

إِنَّ الفَرَزْدَقَ إِذْ تَحَنَّفَ كَارِهاً أَضْحَى لِتَغْلِبَ وَالصَّلِيبِ خَدِينَا

فقالا: «إن البيت الوحيد الذي تؤدي فيه كلمة حنيف معنى مسيحي بوضوح تام هو بيت جرير».

وهذا خطأ في الفهم واضح، إذ المعنى: أن الفرزدق إذا أراد أن يكون حنيفاً (مسلماً)، فإن حنيفيته (إسلامه)، هو أن يتشبه بالنصارى، أي: إنه لا علاقة له بالحنفية (الإسلام)، فهو فاسق على الرغم من إسلامه.

وقد ظل معنى الحنيف، أي المسلم في الشعر الإسلامي يتكرر، كقول ذي الرمة:

يَظَلُّ بِهَا الحِرْبَاءُ لِلشَّمْسِ مَاثِلاً ... لَدَى الجِذْلِ إلاَّ أنَّهُ لاَ يُكَبِّرُ

إِذَا حَوَّلَ الظِّلُّ العَشِيُّ رَأَيْتَهُ ... حَنِيفاً وَفِي قَرْنِ الضُّحَى يَتَنَصَّرُ[1]

وقال ظالم بن البَراء الفقيمي:

إِذَا جَعَلَ الحِرْبَاءُ وَالشَّمْسُ تَلْتَظِي ... عَلَى الجِذْلِ مِنْ حَرِّ النَّهَارِ يَقُومُ

يَكُونُ حَنِيفاً بِالعَشِيِّ وَبِالضُّحَى ... يُصَلِّي لِنَصْرَانِيَةٍ وَيَصُومُ[2]

وقال الراعي في جمع «حنيف»، «حنفاء»:

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمٰنِ إِنَّا مَعْشَرٌ ... حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصِيلاَ[3][4]

إننا دوماً إزاء ضدين: الحنيفية (الإسلام)، والنصرانية.

وربما أوهمتنا إعادة اشتقاق الحنيفية إلى اللغة السريانية *Hanpa*، وفي التارجوم *Targum*، *Hanepa*، إلى أنها غير عربية، كما زعم أوبرمان[5]، على حين يدل اللفظ على أنه عربي الأصل:

فالحَنَف: هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والجَنَفُ ميل عن الاستقامة إلى الضلال.

والحنيف هو المائل إلى الاستقامة. قال عز وجل: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾[6].

---

(١) ديوانه، ج٢، ص ص٦٣١ ـ ٦٣٤.
الجذل: أصل الشجرة. مائل: منتصب. قرن الضحى: حاجبيها وناحيتها.
• وانظر، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٥٣١.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٥٣١.

(٣) اللسان، «حنف».

(٤) شعر، ص٥٦. كما في الحاشية.

(٥) *Obermann, Islamic Origins..., in The Arab Heritage, P.80.*
ويزعم رودينسون أنها جاءت من الآرامية: *Rodinson, Mohammad, P.64.*

(٦) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٦٠.

وقد سمّى القرآن الكريم إبراهيم عليه السلام: «حنيفاً».

وأصبح الحنيف في نظر الفرق الأخرى ضالاً، لأنه انحرف عن سيطرة المعتقد الوثني، هذا هو معناه في أصل اللغة العربية، ولا بد أن يكون هذا هو معناه في بقية اللغات السامية، لأن إبراهيم عليه السلام وصف به، وبعد أن تحرفت الديانات السماوية السابقة على الإسلام، أصبحت الكلمة تعني مذهباً سريانياً خاصاً؛ أي إن الحنيفية ديانة إبراهيم السليمة لم تعد هي دين التوحيد الخالص، ويؤكد المعنى الأول، وأنه عربي الأصل، الوصفُ الآخر لإبراهيم عليه السلام:

﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

فالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، مارس العرب شعائرها، حتى تحولت تدريجياً إلى الوثنية، ولم يبق من أصولها، إلا الاختتان، وحج البيت[١]، والاغتسال، بل إن هذه ذاتها عادت، لتصبح طقوساً، وليست من أصل العبادة المتوجهة لله وحده. والحنيفية دين إبراهيم أصبحت مجهولة، كما قال الراهب لزيد بن عمر: (إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم)[٢].

الشعراء الحنفاء

وإذ يثبت لنا أن الحنيفية، ديانة الإسلام فقط، وأن الحنيف هو المسلم وحده، فإن وصف عدد محدود بأنهم حنفاء، يصبح غير مقبول إطلاقاً. وما الادعاء بأن مثل: أمية بن أبي الصلت، أو ورقة بن نوفل، أو زيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن الحويرث بأنهم حنفاء، إلا تجاوز للواقع نفسه؛ فهؤلاء جميعاً، إما نصارى، وإما متأثرون باليهودية، خلطوا المعتقدات الوثنية والأساطير العربية بما تلقفوه من أخبار أهل الكتاب، كأمية بن أبي الصلت، أو هم ممن تأثر

---

(١) اللسان، «حنف». وانظر ما سبق من تعليق على دين الصابئة.

(٢) الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب مختصر سيرة الرسول ﷺ، ط٢، ص٤٦.

بالإسلام عند قيامه، وظل متذبذباً لا يستقر على رأي.

لقد بلغت الوثنية من التنظيم والسيطرة على عقول أتباعها حداً غاية في القوة والشدة. فعلى حين نجد قوم إبراهيم يتنازلون تحت ضغط إبراهيم عليه السلام عن التطرف في تسمية معبوداتهم، فيقرون ذات مرة بأنهم يعبدون أصناماً:

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾...﴾ [الشعراء: ٧١].

نجد العرب الوثنيين يتعنتون مع النبي ﷺ، فلا يقرون بأنها أصنام، وإنما هي في نظرهم آلهة.

ومن المفارقة المدهشة أنهم كانوا في أشعارهم يرون أن النصارى الذين جسّموا العذراء مريم وعيسى والروح القدس، هم عبدة الأوثان سواهم، قال الأعشى:

يَطُوفُ العُفَاةُ بِأَبْوَابِهِ كَطَوْفِ النَّصَارَى بِبَيْتِ الوَثَنْ(١)

ومن هنا استوحى عنترة صورة مريم، وهي تطوق عيسى، في مجسمات النصارى، عندما قال:

تَجَلَّلَتْنِيَ إِذْ أَهْوَى العَصَا قِبَلِي كَأَنَّهَا صَنَمٌ يُعْتَادُ مَعْكُوفُ(٢)

كما قال عبيد بن الأبرص سابقاً:

وتبدلوا اليعبوب بعد إلههم صنماً فقروا يا جديل وأعذبوا

أي إن جديلة اتخذت اليعبوب معبوداً آخر، هو في نظر الجماعة الأخرى: صنم. أما صنمهم الأول، فهو: «الإله».

---

(١) ديوانه، ص٢١.
العفاة: السائلون.

(٢) ديوانه، ص٥٣. تجللتني: علتني. العصا: كناية عن السيف. يعتاد: يزار. معكوف: يعكف عليه دون انقطاع.

ولقد بلغوا في تصوراتهم أن خلقوا من ناقة صالح عليه السلام أسطورة، فجعلوا لها ابنا يرغو في السماء، وهو ما لم يذكره القرآن الكريم، ذلك أنهم جعلوا الناقة هي الإلهة، وحوارها، هو ابنها المعبود، كما وضح لنا من ادعائهم أن آلهتهم هم بنات الله، وهي الفكرة التي ظهرت جلية في التفكير المسيحي، وقال فيها عز من قائل:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٠].

فمريم: الناقة، والمسيح: الحوار. وليس عجباً بعد ذلك أن يجادل الوثنيون العرب عن معتقداتهم، محتجين ببنوة المسيح عليه السلام، والصورة واضحة في عبادة العجل في المعتقد اليهودي. وفي رغاء الحوار يقول علقمة الفحل:

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ السَّمَاءِ فَدَاحِصٌ ... بِشِكَّتِهِ لَمْ يُسْتَلَبْ وَسَلِيبُ[1]

ومثله قول أمية بن أبي الصلت:

كَثَمُودَ الَّتِي تَفَتَّكَتِ الدِّيـ ... ـنَ عِتِيًّا وَأَمَّ سَقْبٍ عَقِيرَا
نَاقَةً لِلإِلٰهِ تَسْرَحُ فِي الأَرْ ... ضِ وَتَنْتَابُ حَوْلَ مَاءٍ مَدِيرَا
فَأَتَاهَا أُحَيْمِرٌ كَأَخِي السَّهـ ... ـمِ بِعَضْبٍ فَقَالَ كُونِي عَقِيرَا
فَأَبَتَّ العُرْقُوبَ وَالسَّاقَ مِنْهَا ... وَمَضَى فِي صَمِيمِهِ مَكْسُورَا
فَرَأَى السَّقْبُ أُمَّهُ فَارَقَتْهُ ... بَعْدَ إِلْفٍ حَنِيَّةً وَظُؤُورَا
فَأَتَى صَخْرَةً فَقَامَ عَلَيْهَا ... صَعْقَةً فِي السَّمَاءِ تَعْلُو الصُّخُورَا

(١) ديوانه، ص٤٦. داحص: فاحص برجليه عند الموت. لم يستلب: أي كأن القتلى والمصرعين أكثر من أن يحاط بهم. الشكة: جملة السلاح.

فـرَغَـا رَغْـوَةَ فَـكَـانَـتْ عَـلَـيْـهِـمْ   رَغْـوَةُ الـسَّـقْـبِ دُمِّـرُوا تَـدْمِـيـرَا[1]

وعلى الرغم مما في هذه الأبيات من أثر قرآني على النحو التالي:

تـفـتـكـت الـديـن عـتـيـاً

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [الذاريات: ٤٤].

وقوله:

تـنـتـاب حـول مـاء مـديـرا

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وقوله:

صعقة في السماء تعلو الصخورا

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧].

وعلى الرغم من أن السطلي يرى أن هذا الأثر القرآني: «يدل على خيال قصاص أخذ المعاني من القرآن، ثم أضاف إليها كثيراً من

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة السطلي، ص ص٤٠٥ - ٤٠٧.

تفتكت: فتكت. العتي: البغي. السقب: ولد الناقة. تسرح: تخرج إلى المراعي. تنتابه: تقصده مرة تلو أخرى. المدير: الممدور، والمدر: تطيين وجه الحوض لسد ما بين حجارته لئلا ينشف. الأحيمر: عاقر الناقة. كأخي السهم: سريع كالسهم. العضب: السيف القاطع. أبت: قطع واستأصل. العرقوب: العصب الذي يضم ملتقى الوظيفين والساقين. الصميم: العظم الذي به قوام العضو. الإلف: ألفة الصداقة. الحنية: الحانية البرة بولدها. الظؤور: الملازمة لولدها. قام: وقف. الرغوة: المرة من الرّغاء.

التفصيلات التي تذكرنا بما وصفه القصاص من أحاديث مكذوبة في العصر الإسلامي»(١)، فإن هذا الأثر القرآني يكشف لنا حقيقة ما نفهمه من الحنيفية. فالآيات المذكورة هي آيات مكية، كما ورد ذكر عقر الناقة في سورة الأعراف: ٧٣ ـ ٧٧، وسورة القمر: ٢٧ ـ ٢٩، المكيتين كذلك. فأمية بن أبي الصلت الذي زُعم أنه أحد الأحناف، كان مطّلعاً على ما عند أهل الكتاب، وكان يعلم أن نبياً سيبعث:

«كان [أمية] يخبر بأن نبياً يبعث قد أظل زمانه، ويؤمل أن يكون ذلك النبي، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ وقصته، كفر حسداً له»(٢).

إن الشيء الوحيد الذي بقي من الحنيفية هو الحرم، قال تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧].

وقد تحول إلى معبد وثني تُجمع فيه الأصنام، كما تحولت الشعائر الحنيفية إلى طقوس وثنية، الهدف منها إرضاء الآلهة، وأصبح ترديد ذكر الله فيها، وفي غيرها من مناسبات، يعادل ما تؤديه الأمم الوثنية للقوى العليا، أي إن الله، تعالى ذكره، كان في منظور الوثنيين عامة، وليس العرب خاصة، الإله السماوي الذي تمثله على الأرض آلهة مضارعة له؛ فالحج مثلاً، لا يختلف عن حجّ الهندوس إلى نهر الكنج، ومكة في معتقدهم مثل: أور في العراق، أو دلفي في اليونان، أو طيبة في مصر، أو بنارس، مركز الديانة الهندوسية. والملاحظ أن العرب كادوا لولا الإسلام أن يتخلوا تدريجياً عن

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص٢٠١.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٤٥٩.

التمسك بقيمة (الحرم) الدينية، إذ بنوا معابد خاصة بهم يعتمرون إليها كما هو الحال في ذي الخلصة، بل أطلقوا على معابدهم مسمى الكعبة كـ«كعبة نجران».

وفي الحج إلى الأقيصر يقول ربيع بن ضَبُع الفَزاري:

فَإنَّني وَالَّذِي نَغَمُ الأَنَامِ لَهُ حَوْلَ الأُقَيْصَرِ تَسْبِيحٌ وَتَهْلِيلُ[1]

ومن مناسك الحج عند الوثنيين، ريام، «وهو منسك في أرحب، فكانوا يحلون إحرامهم عنده»[2].

ويمكن في ضوء هذه التفسيرات أن نعيد كل ما قيل إنه من العادات العربية القديمة مثل: قلب القميص، الرتم... إلخ[3]. إلى طقوس وثنية خالصة، تؤمن بالأرواح الشريرة، والقوى الخفية المؤذية.

وكان أمية بن أبي الصلت يستمع إلى القرآن الكريم، فأخذ منه مثلما رأينا في مثل تلك التأثيرات، وأدخل عليها ما وصل إليه علمه من أساطير، ومزج الفكر الوثني بالإسلامي، ولهذا ورد أن الرسول ﷺ قال:

«آمن شِعره وكفر قلبه»[4].

وكيف يقبل من حنفي أن يضم فرعون إلى داؤد وهود وموسى عليهم السلام، فيقول:

حَيٌ داود وابنَ عاد وموسى وفُرَيْعٌ بُنْيَانُه بالثَّقَال[5]

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص٣٩.

(٢) بافقيه، تاريخ اليمن، ص٢٠٥.

(٣) انظر هذه العادات في: الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص٥١٠.

(٤) البغدادي، الخزانة، جـ١، ص٢٤٩.

(٥) ديوانه، ص٤٤٤.

وانظر تقليده قصة موسى وفرعون، كما وردت في القرآن الكريم؛ ديوانه، ص٥٣٩.

ولا بد بعد هذا أن نشير إلى عدم الدقة في التمييز بين الأشعار، فمما نُسب إلى زهير بن أبي سلمى، قوله:

بَـدَا لِـيَ أَنَّ الـلَّـهَ حَـقٌّ فَـزَادَنِـي   إِلَى الحَقِّ تَقْوَى اللَّهِ مَا كَانَ بَادِيَا
بَدَا لِيَ أَنَّ النَّاسَ تَفْنَى نُفُوسُهُمْ   وَأَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَرَى الدَّهْرَ فَانِيَا

والذي يقول عنه صادق مكي:

«هذه حقيقة توصل إليها زهير بن أبي سلمى بالتأمل، وفيها أن الله حق، وهذه القناعة زادته تقوى لله. كما توصل إلى حقيقة ثانية مؤداها أن كل شيء فأن سوى الدهر...»[(١)]. والحق أن هذين البيتين من ضمن قصيدة منسوبة إلى أبي صرمة الأنصاري، ومعنى الشعر فيها إسلامي كلية، ولا يمت إلى الجاهلية في شيء.

ويقول الفيومي عما نسب إلى علاف بن شهاب التيمي:

«كان يؤمن بالله تعالى وبيوم الحساب وفيه يقول:

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة   فأخذت منه خِطة المقتال
وَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ جَازٍ عَبْدَهُ   يَوْمَ الحِسَابِ بِأَحْسَنِ الأَعْمَالِ[(٢)]

فإذا كان هذا إيمان بيوم الحساب حقاً، والشاعر ليس نصرانياً ولا يهودياً، فأين منه قوله تعالى عنهم: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾، وقول عمر رضي الله عنه: «إن القوم لم يكونوا يرجون جنة...».

ألسنا هنا أمام اعتقاد وثني بالانبعاث، كما استشهد هو أيضاً بدفن الراحلة والبلية؟[(٣)].

---

(١) ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي، ص٧٧.
واختصاراً لمواقف الكتاب العرب، وعدم وضوح الصورة في أذهانهم عن الحنيفية، يمكن النظر في: قباوة، سلامة بن جندل، ص ص١١٠ ـ ١٢١.
(٢) في الفكر الديني الجاهلي، ص٢٧٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.

زيد بن عمرو بن نفيل

وإذ يضطرب الدارسون حول تحديد موقفهم من كل المفاهيم السابقة، نراهم كثيري الاحتجاج بشخصية عمرو بن نفيل، ولكن ضمن ذلك المسار المشوش نفسه، فيروون أنه:

«كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول:

يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري.

ومما يروى عنه قوله:

أَرَبّاً وَاحِداً أَمْ أَلْفَ رَبٍّ أَدِينُ إِذَا تَعَقَّدَتِ الأُمُورُ
عَزَلْتُ اللاَّتَ وَالعُزَّى جَمِيعاً كَذَلِكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ الخَبِيرُ
فَلاَ العُزَّى أَدِينُ وَلاَ ابْنَتَيْهَا وَلاَ صَنَمَي بَنِي غَنْمٍ أَزُورُ
وَلاَ هُبَلاً أَزُورُ وَكَانَ رَبّاً لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حِلْمِي صَغِيرُ

ويعلق برو على هذا فيقول:

«إن هذه الروايات وغيرها من أقوال الأحناف - وإن كنا لا نجزم بأنه لم يدخل عليها تعابير ومفاهيم - إسلامية هي دليل بين على أنه كان هناك حركة أشبه بالثورة على الأوضاع الدينية الراهنة، التي عجزت عن أن تملأ وجدان العربي، ولذا انحط شأنها انحطاطاً متواصلاً كان يرافقه أبداً تعظم في أهمية الشعور الديني، القائم على أساس الإيمان بالله الواحد السماوي...»(١).

ومع ذلك نجد آخر يصف موقف زيد هذا، فيقول محمد علي مختار:

---

(١) تاريخ العرب القديم، ص ص٣١٣ - ٣١٤.
لمزيد من الاطلاع على الموقف المعاصر من الشعر الديني قبل الإسلام، انظر، دراسة محمد عبده عزام، غير المنشورة:
A Critical Study of the Peotry..., PP. 13-105.

«يمثل هذا الرجل الحنفية كدين مبهم»[1].

ونستدل من هذا على أن زيداً - ومن ضُم إليه - كانوا قريبي العهد بالإسلام، يقول دلّو:

«إن معظمهم عاش في الأيام الأخيرة من الجاهلية العربية، وأن بعضهم عاش في أيام الإسلام الأولى»[2].

لقد سبق أن استجلينا أن مفهوم الحنيفية السابق على الإسلام، لم يكن المقصود به حنيفية الإسلام، ويؤكد نبيه عاقل هذا حين يعتمد على ما رواه السهيلي عن زيد بن عمرو بن نفيل، فيقول:

«خرج إلى الشام... فقابل أشخاصاً يهوداً ونصارى وشرح لهم آراءه ونظرياته الدينية وتناقش معهم وأعلمهم أنه يريد ديناً غير اليهودية والنصرانية فقالوا له: لا نعلم إلا أن تكون حنيفاً، فقال لهم: وما الحنيفية؟ قالوا: هي دين إبراهيم، وأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وأنه كان يعبد الله. وبعد هذا النقاش رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني على دين إبراهيم»[3].

ويحدد نبيه عاقل رأيه بعد ذلك في الحنيفية، فيقول:

«الحنيفية... لم تكن لها أبعاد محدودة أو حتى وجود واضح في الحجاز بدليل أن زيد بن عمرو بن نفيل وصحبه حين أرادوا التعرف على معناها وتعاليمها قصدوا الشام»[4].

ثم يعلق:

«أن الحنيفية لم تكن معروفة بالحجاز بالقدر الذي يحاول البعض

---

(١) دراسات تاريخ الجزيرة العربية، «الحنيفية والحنفاء»، ص١٧٠.
(٢) جزيرة العرب قبل الإسلام، ج٢، ص٢٤٢.
(٣) تاريخ العرب القديم، ص٣٠٨.
(٤) المرجع نفسه، ص ص٣١٠ ـ ٣١١.

تصويره»[1]، فزيد بن عمرو بن نفيل، كان حنيفاً، على غير حنيفية الإسلام، وكان في أغلب اتجاهه مجتهداً، متسائلاً، أي إنه يمثل حالات فردية لا أثر لها في ذلك الهيكل الكبير من الوثنية، وإن ما رواه السهيلي يثبت أن اليهودية والنصرانية والوثنية، كل سواء في التجسيم، والتجسيد والتصور، بل إن زيداً نفسه كان وثنياً حتى سن متأخرة من حياته:

ولا هبلا أزور وكان ربا   لنا في الدهر إذا حلمي صغير

لقد كان زيد: «أمة وحده»[2].

إنه شخصية فريدة، لا يمكن القياس عليها، أو اتخاذها أنموذجاً عملياً على مفهوم التوحيد، ولا تقدم إطاراً فكرياً مجابهاً للوثنية، أو تأسيساً نضالياً للإسلام.

والغريب في الأمر أن مسمى «الحنيف»، أو «الحنفاء»، كان يطلق أيضاً على الوثنيين من العرب، إذ:

«كان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين إبراهيم»[3].

وبهذا تتسع التسمية لتشمل الوثنيين والصابئة، حتى جاء الإسلام، فصارت صفة للمسلم وحده.

وبعد، فلو كان للحنفاء طريقة ومنهاج، أو وجود، وَفْق التصور الإسلامي، لا تهم الوثنيون محمداً ﷺ بأنه يتلقى عنهم ويصدر منهم، لا سيما والمحتجون بوجود هذه الفئة يركزون على

---

(١) المرجع نفسه، ص٣١١.

(٢) ابن هشام، السيرة، جـ١، ص٢٣.

أما قس بن ساعدة، الموصوف بأنه تحنف (أنظر، ابن سعد، الطبقات، حـ١، ص٣١٥)، فهو نصراني (انظر، الجاسر، المنطقة الشرقية، حـ٤، ص١٧٢٦).

(٣) اللسان، «حنف».

الخروج إلى غار حراء[١] للعبادة، ولكن الوثنيين لم يقولوا ذلك، وإنما اتهموا الرسول ﷺ بتلقي العلم من رجل قال عنه القرآن الكريم:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٤].

وفي هذه الآية إشارة إلى اليهود، أو موال للعرب من الفرس ممن دان بالنصرانية[٢]، وليس من بينهم من ينسب إلى الحنيفية.

أما تعبّد النبي ﷺ في غار حراء، فقد ذهب المستشرقون في تفسيره كل مذهب[٣] وما هو في الحقيقة إلا عبادة، ولا يشبه ما كان يقوم به وثنيو مكة من صعود إلى الجبال، فاعتزال النبي ﷺ إنما كان للتأمل في ملكوت الله الواحد الأحد؛ أما الوثنيون، فكانوا يؤدون ذلك ممارسة وثنية لها علاقة بتقديس الجبال تقرباً إلى مواطن الآلهة أو الأرواح.

وبعد ذلك، فلنُفْسِح مجالاً للتحريف والتبديل، بل الوضع والانتحال؛ مثل تبديل اللات، بلفظ الجلالة الله، أو زيادة بعض

(١) جواد علي، المفصل، جـ٦، ص٤٠٤.
(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ١٨، ص٣٢٣.
(٣) انظر مثلاً: *Oberman, Islamic Origins.., In the Arab Heritiage, PP. 59-119.*

الأبيات ذات الطابع الإسلامي الصرف، أو نسبة أشعار ذات مضمون توحيدي خالص إلى بعض الجاهليين... إلخ.

وأخيراً، فإن هذه الفصول الثلاثة تبرهن لنا مدى انتشار الوثنية بين العرب، بل مدى تأثر المنتمين إلى الديانتين اليهودية والمسيحية بالأفكار الوثنية، مما يبطل بحق ادعاءات أعداء الإسلام بأي أثر خارجي، لا سيما الربانيون (الأحبار)(١).

أما فيما يخص لفظ الجلالة «الله»، فإن الحقيقة المطلقة حول استعماله هي: أنه اسم لله سبحانه وتعالى، عرفته الخليقة منذ الأزل، واحداً أحداً، لا ندّ له ولا شريك؛ فلما تحولت البشرية إلى الوثنية، أطلقوا الاسم على كبير معبوداتهم، وقد ظلت عناصر اشتقاقية موجودة في ذلك الاسم: إل - إيل - إيلو - لا -... إلخ، ثم جردوا ألوهية الله جل شأنه، من بقية أسمائه وصفاته، فأسبغوها على آلهتهم وحدها: العزيز/ العزى، المنون/ مناة، الساعي/ سُواع، الغياث/ يغوث.

أما اللّه، فهو كبير الآلهة المحسوسة..

ومثلوا كل هذه في صور حيوية شتى من حجارة وكواكب، وحيوان... إلخ. وكان الله في أذهانهم هو هذا، أما الله في الإسلام فهو الكل المطلق.

وكانت دعوة محمد ﷺ - كدعوة بقية الأنبياء والمرسلين في كل أمة، وفي كل زمان، قبل الإسلام - دعوة إلى تلك الحقيقة المطلقة: التوحيد، وهي دعوة لم تأت تطوراً، أو تعلماً بشرياً، وإنما هي معرفة إلهية، وقد جاءت وللوثنية مظاهر شتى، ولكنها وثنية عالمية، أطبقت على الأرض بظلماتها، حتى جاء الإسلام بنوره.

---

(١) *Kister, Studis in Jahiliyy and Early Islam, PP. 223-236.*

وعلى العكس مما يقال من: «تدهور عبادة الأوثان» قبل الإسلام، فإن الصحيح هو استفعال خطر الوثنية، واشتداد شوكتها وانتشارها، بل إنه من غير الصحيح أبداً: «أن اليهودية والنصرانية كان لها أثرها في تهيئة العرب لتقبل التوحيد الإسلامي»، لأن النصرانية واليهودية كانتا لولا ظهور الإسلام، آيلتين لا محالة، إلا وثنية خالصة، بدلاً من المسخ والتحريف.

ومن ثم علينا، في ضوء هذا التحقيق أن نعيد قراءاتنا في دراسات مضت، حول موضوعات مثل: عبادات العرب قبل الإسلام، القيم الخلقية عند العرب، أخلاق العرب... وعلينا أن نعرض كل هذا على القرآن والسنة النبوية، قبل أي حديث آخر.

ومن المهم أن نقصر أحاديثنا على العرب الناطقين باللغة العربية «الفصحى»، أو أن نتوسع في الدراسة، لتشمل كل معرفة عند «العرب» الآخرين، كحمير، والأنباط، والثموديين، والصفويين؛ بل كل من سكن المنطقة ممن يسمون بالساميين، كالبابليين والأكسونيين، والكنعانيين...، وربما أضيف إليهم المصريون.

وحبذا لو نظرنا إلى العرب الشماليين في حجمهم الطبيعي: وثنيين، أميين؛ حتى إن شعرهم نفسه لا يخرج عما لدى الأمم الوثنية الأمية في عصرهم، دون مبالغات، أو تفخيم ذات.

ولعل قول سُراقة بن عوف بن الأحوص، في لبيد بعد إسلامه، يختصر لنا كل ذلك الحديث، يقول:

وَجِئْتَ بِدِينِ الصَّابِئِينَ تَشُوبُهُ ... بِأَلْوَاحِ نَجْدٍ بُعْدَ عَهْدِكَ مِنْ عَهْدِ
وَإِنَّ لَنَا دَاراً زَعَمْتَ وَمَرْجِعاً ... وَثَمَّ إِيَابُ القَارِظَيْنِ وَذِي البُرْدِ[1]

---

(١) أشعار العامريين الجاهليين، ص٧٩. وانظر قول هند بنت عتبة، الخالديان، الأشباه والنظائر، ط، ص٩٣.